مقامات الاستدراج ومستوياته في القرآن الكريم

(دراسة بلاغية)

دكتور

أحمد إبراهيم محمد علي

أستاذ البلاغة والنقد المساعد بالكلية

Stimulus and Levels of Lure in the Holy Quran

Ahmed Ibrahim

Rhetoric and Criticism Department of Al-Azhar Girls College, 10Th of Ramadan City. Al-Azhar University, Egypt.

E-mail: *Dr.ahmad510510@gmail.com*

Abstract

Holy Quran is a self-refreshment and a remedy for it and its righteousness from two aspects. Its good and its bad and how to restrict the self through some restrictions and the good wisdom by this curriculum all prophets from Ibrahim till Muhammad (PBUH) scope it in their missions. At these ages and their horror and terror. it's a must to study the Quran and sunnah and their methods in treatment the human behavior. The decoy method and its level through some systems by its persuasion and righteousness to reach its aim directly through applying a rhetoric aspect .

Keywords : *– lure – levels - the Quran - sunnah*

مقامات الاستدراج ومستوياته في القرآن الكريم {دراسة تحليلية}

أحمد إبراهيم

قسم البلاغة والنقد، كلية البنات الأزهرية بالعاشر من رمضان، جامعة الأزهر ،جمهورية مصر العربية .

الإيميل : Dr.ahmad510510 .com@gmail

الملخص

القرآن الكريم في رحلة تهذيبه للنفوس، وعلاجه لها ابتغاء صلاحها، ينظر في طواياها إلى أمرين: فطرتها الطيبة التي تهفو إلى الخير، ونزعاتها الطائشة التي تزين لها فعل السوء، محاولا دعم تلك الفطرة، وتجلية أشعتها، وتهذيب هذه النزعات، والكفكفة من حدتها بالحكمة والموعظة الحسنة، انطلاقا من احترامه للفطرة الإنسانية، وفهمه للطبيعة البشرية في إطار منهج وسط بين الإفراط والتفريط .مستعينا بالتلطف والرفق، واللين والاستدراج كأدوات للإقناع،و على هذا المنهج سار الأنبياء ــ عليهم الصلاة والسلام ــ منذ إبراهيم عليه السلام، وانتهاء بمحمد ﷺ لم يحيدوا عنه مع ما لاقوا من أقوامهم مما تنوء به الجبال، وتضيق به الصدور، هذا في الوقت الذي تسود فيه أوساط المجتمعات موجةٌ من العنف والرعونة،والجهالة،والخشونة، في ظل غياب دراسات تبرز هذا الجانب المشرق في القرآن والسنة، وتظهر هذا المنهج الحكيم في معالجة القضايا ومواجهة هذا الانحراف في السلوك المجتمعي، وهذا البحث في مقامات الاستدراج ومستوياته يبرز ذلك المنهج المشرق في القرآن الكريم من خلال تناول عدة مقامات عمد فيها القرآن الكريم إلى أسلوب الاستدراج، والتلطف والإقناع كأداة ناجعة في الوصول إلى الغاية والهدف ليس بصورة مباشرة، بل بالتدرج في مستويات متعددة تتفاوت حسب اختلاف وتفاوت المقام، وحال المخاطب بالاستدراج، وذلك في ضوء منهج بلاغي تحليلي .

الكلمات المفتاحية : - الاستدراج- مستوياته- القرآن الكريم- السنة النبوية

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على من بعثه الله رحمة للعالمين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

فالقرآن الكريم في رحلة تهذيبه للنفوس، وعلاجه لها ابتغاء صلاحها، ينظر إلى ما في طواياها من فطرة طيبة تهفو إلى الخير، وتسعد بإدراكه، وتأسى للشر وتحزن من ارتكابه، وينظر إلى نزعاتها الطائشة التي تشرد بها عن سواء السبيل، وتزين لها فعل ما يعود عليها بالضرر والسوء، فيهذب هذه النزعات، ويكفكف من حدتها باستنزال طائرها، ويدعم تلك الفطرة، ويجلي أشعتها، مستدرجا تلك النفوس شيئا فشيئا نحو سلامة الفطرة وأنوار الشرع الحكيم

لذا كانت الحكمة والموعظة الحسنة، هي المنهج الذي سلكه القرآن، في معالجة الكثير من القضايا، دينية كانت أو اجتماعية أو سياسية، ينطلق في ذلك كله من احترامه للفطرة الإنسانية، وفهمه للطبيعة البشرية، فتراه ــ مثلا ــ في معالجته وتهذيبه للغرائز الإنسانية ينأى عن وسائل الكبت العنيف، ويحيد عن الإفراط والتفريط مؤثرا الاعتدال والوسطية فيبيح التوسع الطيب، ويَعُدُّ التدخل بالحظر أوالتحريم، أوالتضييق على الرغبات المعقولة من متاع الحياة وسعتها التي لا حرج فيها مدرجة إلى عمل السوء والفحشاء.

لذا قبل أن ينهاه عن اتباع خطوات الشيطان أباح له الأكل مما في الأرض حلالا طيبا. يقول –سبحانه–: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾[1]

(1) سورة البقرة: ١٦٨.

وتراه في القضايا الاجتماعية التي ينشط فيها أصحاب النفوس الضعيفة، والقلوب المريضة حتى تطل أشباح الخصومة برؤوسها البغيضة، ووجوهها الكالحة داعية إلى الانتقام والقطيعة، واللجاجة في الخصومة إلى حد الفجور في بعض الأحيان.تراه معنيا بالمحافظة على وشائج القربى، والمودة الإنسانية قائمة بين الناس بقدر عنايته بوضع الضوابط والتشريعات التي تحفظ على المجتمع تماسكه وترابطه.

يلجأ في هذا كلِّه إلى الرفق واللين التلطف والاستدراج حتى مع أشد الناس عداوة للذين آمنوا، فتراه يأمر نبيه موسى وهارون – عليهما السلام: أن يقولا لفرعون قَوْلاً لَيِّناً لطيفاً سهلاً رقيقاً، ليس فيه ما يغضب وينفِّر، كان ذلك منهج الأنبياء ــ عليهم الصلاة والسلام ــ منذ إبراهيم عليه السلام، وانتهاء بمحمد ﷺ ــ لم يحيدوا عنه مع ما لاقوا من أقوامهم مما تنوء به الجبال، وتضيق به الصدور.

هذا في الوقت الذي تسود فيه أوساط المجتمعات موجة من العنف والرعونة، والغلظة والجهالة، في ظل غياب دراسات تبرز هذا الجانب المشرق في القرآن والسنة، وتظهر هذا المنهج الحكيم في معالجة القضايا ومواجهة هذا الانحراف في السلوك المجتمعي.

وهذا البحث في مقامات الاستدراج ومستوياته يبرز ذلك المنهج المشرق في القرآن الكريم من خلال تناول عدة مقامات عمد فيها القرآن الكريم إلى أسلوب الاستدراج، والتلطف والإقناع كأداة ناجعة في الوصول إلى الغاية والهدف ليس بصورة مباشرة، بل بالتدرج في مستويات متعددة تتفاوت حسب اختلاف وتفاوت المقام، وحال المخاطب بالاستدراج، وذلك في ضوء منهج بلاغي تحليلي.

وبعد التقصي والبحث عثرت على عدة دراسات سابقة تناولت الاستدراج منها:

[١] **الاستدراج في القرآن الكريم**. دراسة تحليلة للدكتور: أحمد السيد طلحة داوود، كلية اللغة العربية بالمنصورة، جامعة الأزهر.وهو كتاب من القطع المتوسط مطبوع وغير منشور، **جاء في أربعة مباحث**: تناول في **المبحث الأول** مفهوم الاستدراج. وجاء **المبحث الثاني** تحت عنوان: مقامات الاستدراج، **والمبحث الثالث**: تحت عنوان: أساليب الاستدراج، **والمبحث الرابع**: فقه سياسة الاستدراج، وقد تمحور الكتاب في مجمله حول بناء الاستدراج، وتنوع أساليبه، وفقه سياسته.

[٢] **الاستدراج في القرآن والسنة الشريفة**، للدكتور رياض هادي هاشم، وهو بحث منشور على الشبكة العنكبوتية بصيغة pdf، عني فيه الباحث بالاستدراج الإلهي للكافرين والطغاة والمجرمين.

[٣] **مصطلح الاستدراج، المفهوم والأثر**. دراسة بلاغية، تأصيلا وتطبيقا، للدكتور: محمد عبدالرحمن الخراز، كلية اللغة العربية، جامعة الفصيم، المملكة العربية السعودية، وهو بحث منشور بمجلة كلية اللغة العربية بالزقازيق، جامعة الأزهر، العدد رقم: ٣٥، لسنة ٢٠١٥ م، وقد عني فيها الباحث بمفهوم الاستدراج والتأصيل له.

[٤] **الاستدراج في القرآن الكريم**، للدكتور: رياض محمود قاسم، كلية أصول الدين بالجامعة الإسلامية، بغزة، فلسطين. وقد عني فيه الباحث بالاستدراج الإلهي للكافرين.

وبهذا يتضح أن هذا البحث يمتاز عن تلك الدراسات بمعالجة الاستدراج من خلال التركيز على مستوياته، وكيف أنها لم تكن على وتيرة واحدة بل

تتفاوتت قلة وكثرة حسب حال المخاطب بالاستدراج، وذلك من خلال سبعة مقامات.

وقد اجتهدت لصياغة عنوان لكل مقام، وكذلك عنونة مستويات كل مقام، بعد مراجعة السياق وقرائن الأحوال.فجاءت على النحو التالي:

المقدمة: بينت فيها أهمية الموضوع، وسبب اختياره، والدراسات السابقة، ومنهج البحث، وخطته.

التمهيد: مفهوم الاستدراج.

- **المقام الأول: السياسة والحكم، وإدارة شئون الدولة.**
- **المقام الثاني: ترقيق العاطفة عند النزاع في الطلاق.**
- **المقام الثالث: تعيين الدين الحق.**
- **المقام الرابع: الترغيب في المباح خشية الوقوع في المحرم.**
- **المقام الخامس: تحقيق اختصاص الحق. سبحانه. بالربوبية ونقض ما سواها.**
- **المقام السادس: الاستدلال بأفول الكواكب على حدوثها، واختصاص فاطرها بالربوبية.**
- **المقام السابع: الاحتجاج لاختصاص الله. سبحانه. بالرازقية.**

الخاتمة: دونت فيها أهم نتائج البحث، وأهم المصادر والمراجع التي اعتمد عليها،

وفهرست موضوعاته.

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم، وأن يغفر لي تقصيري، وأن يجعل ثوابه في ميزان حسنات والدي، ومشايخي، وكل من مد لي يد العون، إنه نعم المجيب.

دكتور
أحمد إبراهيم محمد علي
أستاذ البلاغة والنقد المساعد بكلية البنات الأزهرية بالعاشر من رمضان

تمهيد:

أولا: مفهوم الاستدراج:

أ ــ **الاستدراج لغة**: يقال درج الصَّبيُّ أو الطائر، إذا مشَى مشياً متقارِباً[(١)]، وأصلُ الدَّرجة:المَنْزِلة، والجمع دَرَج، ومنه دَرَجُ البِناء؛لأنها مَرَاتِب بعضُها فوْق بعض[(٢)]، ويقال: امْتَنَعَ فُلانٌ مِن كذَا وكذَا، حتَّى أَتاه فُلانٌ فاسْتَدْرَجَه، أَي: خَدَعَهُ، حَتَّى حَمَلَه علَى أَنْ دَرَجَ في ذلك[(٣)]، واسْتَدْرَجَهُ بمعنى أدناه منه على التدريج فَتَدَرَّجَ[(٤)].

فالمادة تدور حول معاني التمهل والتؤدة، والإدناء من الغرض على مهَل، وفي رفق،والترقي أو الاستنزال عبر درجات، أو مستويات.

ب ــ **الاستدراج في الاصطلاح**: وردت كلمة الاستدراج في موضعين بالقرآن الكريم، الأول في سورة الأعراف[(٥)]، والثاني في سورة القلم[(٦)]، بصيغة واحدة هي صيغة المضارع مع زيادة الاستقبال في أوله، وهما بمعنى الإمهال والإنظار للكافرين، لورودهما في سياق التهديد والوعيد لهم، وبيان أن

---

(١) الاشتقاق لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد، مكتبة الخانجي – القاهرة / مصر – ط: ٣، ت: عبد السلام محمد هارون، ص: ٢١٧

(٢) المخصص ــ لابن سيده، أبي الحسن علي بن إسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي، دار إحياء التراث العربي – بيروت – ١٤١٧هــ ١٩٩٦م، ط: ١، ت: خليل إبراهم جفال، ج: ١، ص: ٥١١.

(٣) ينظر تاج العروس من جواهر القاموس لمحمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، الملقّب بمرتضى الزَّبيدي مادة: درج.

(٤) مختار الصحاح لمحمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي، مادة: درج.

(٥) الآية: ١٨٢.

(٦) الآية ٤٤.

ماهم فيه من نعيم دنويوي لا يعني خيـــريتهم، أو أن الله قـــد أهمـــل عبـــاده المؤمنين، بل هو استدراج لم من الحق ــ سبحانه ــ ليزدادوا عن الحق بعدا، وفي الضلال انغماسا.

وهو مفهوم مختلف عن مفهوم الاستدراج بمعنى إرخاء العنان للخصـــم، حيث يراد تبكيته ــ كما يقول الألوسي ــ وأنه مما تتـــراكض فيـــه خيـــول المناظرين، ألا بأس من حمل كلام الله عليه[1]،

وفي القرآن سعة من هذا و مملوء من حسن الحجاج والملاطفة، خاصـــة لمنكري المعاد الأخروي وعبادي الأوثان، والأصنام كما ذكر العلوي[2]

وهو من المصطلحات التي يشوبها كثير من العموم والشـــمولية بســـبب استعماله لدى كثير من العلماء مرادفـــا لمصـــطلحات أخـــرى، كالحجـــاج، والتعريض، والكلام المنصف، والكناية،

فيجعله صاحب مرقاة المفاتيح من أساليب المخاصـــمة والمجادلـــة التـــي تستخدم للذب عن دين الله، يقول:" وهو بمعنى التعريض؛ لأنه نوع من الكناية، ونوع من التعريض يسمى الاستدراج وهو ارخاء العنان مـــع الخصـــم فـــي المجارات ليعثر حيث يريد تبكيته فسلك إبراهيم عليه الصلاة والسلام مع القوم هذا المنهج...وذلك عندما طلبوا منه ﷺ أن يخرج معهم إلى عيدهم، فأراد أن يتخلف عنهم للأمر الذي هم به، فنظر نظرة في النجوم فقال: إني سقيم، وفيه

(١) ينظر تفسير الألوسي، ج: ١، ص: ٣٩.

(٢) ينظر الطراز للعلوى، ص: ٣٣٩، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. راجعه: محمـــد عبدالسلام شاهين.

إيهام منه أنه استدل بأمارة علم النجوم على أنه سيسقم ليتركوه فيفغل بالأصنام ما أراد أن يفعل"[١]

ويجعله الشهاب الخفاجي مرادفا لما سماه اليلاغيون بالكلام المنصف، يقول:[٢]" حرف الشك هو "إن" وأصل وضعها أنها لشك المتكلم، وهو غير شاك في كونه على بينة لكنه من الكلام المنصف والاستدراج، ولذا أتى به على زعمهم وما عندهم من الشك في أمره"

ولعل هذا ما دعا ابن الأثير إلى أن يقول عن الاستدراج:"والكلام فيه وإن تضمن بلاغة فليس الغرض ههنا ذكر بلاغته فقطِ بل الغرض ذكر ما تضمنه من النكت الدقيقة في استدراج الخصم إلى الإذعان والتسليم وإذا حقق النظر فيه علم أن مدار البلاغة كلها عليه لأنه لا انتفاع بإيراد الألفاظ المليحة الرائقة ولا المعاني اللطيفة الدقيقة دون أن تكون مستجلبة لبلوغ غرض المخاطب بها"[٣]

وأشمل ما قيل في تفسير هذا المصطلح وأولاه بالقبول قول العلوي: "وهذا اللقب إنما يطلق على بعض أساليب الكلام، وهو ما يكون موضوعا لتقريب المخاطب، والتلطف به، والاحتيال عليه بالإذعان إلى المقصود منه، ومساعدته

---

(١) مرقاة المفاتيح لعلي بن سلطان محمد القاري شرح مشكاة المصابيح للتبريزي، كتاب أحوال القيامة، باب بدء الخلق، وذكر الأنبياء، ت: الشيخ جمال عيتاني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج: ١٠ ، ص: ٣٧١

(٢) ينظر حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي، ج: ٤، ٤٦. في سياق تفسيرقوله تعالى: "فمن ينصرني من الله إن عصيته " آية: ٦٣ من سورة هود.

(٣) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لأبي الفتح ضياء الدين نصرالله بن محمد بن محمد بن عبدالكريم الموصلي،المعروف بابن الأثير، ت: محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية – بيروت، ١٩٩٥، ج: ٢، ص: ٦٤

له بالقول الرقيق، والعبارة الرشيقة كما يحتال على خصمه عند الجدال والمناظرة بأنواع الإلزامات والانتماء إليه بفنون الإفحامات؛ ليكون مسرعا إلى قبول المسألة، والعمل عليها، وكمن يتلطف في اقتناص الصيد فإنه يعمل في الحبالة كل حيلة؛ ليكون ذلك سبيلا إلى ما يقصده من الاصطياد.

فهكذا ما نحن فيه، إذا أراد تحصيل مقصد من المقاصد فإنه يحتال بإيراد ألطف القول وأحسنه، فما هذا حاله من الكلام يقال: الاستدراج"[1]

وعلى هذا يمكن تعريف الاستدراج بأنه: ما يكون موضوعا لتقريب المخاطب، والتلطف به، والاحتيال عليه بإيراد ألطف القول وأحسنه إسراعا به إلى قبول المقصود.

ثانيا: بلاغته

يعد الاستدراج من الأساليب التي استخدمها القرآن الكريم في كثير من القضايا السياسة، العقدية، الاجتماعية لاستمالة المخاطبين، وإقناعهم، والتلطف بهم حتى يذعنوا للحق.

ففي مجال السياسة والحكم نرى القرآن يقص علينا استدراج ملكة سبأ ملأها لاستجلاب رضاهم عن حكمها، وقناعتهم بملكها، حتى إذا قضت بما ترى نزلوا على قضائها، وتحزبوا حول حكمها، فتضمن بذلك وحدة الصف، وقوة الدولة.

وتراه في مقام الطلاق يستدرج طرفي النزاع، ويتلطف بهم كأنما يفتل في الذروة والغارب حتى يبلغ ما يراد من التعامل بالفضل والإحسان تحصيلا للتقوى، وتطييبا للقلوب، واستبقاء للمودة الإنسانية قائمة بين الناس.

---

(١) الطراز للعلوي، ص: ٣٣٧.

وفي مقام تعيين الدين الحق تراه وكأنه يلتمس لليهود والنصارى ما عساهم يبررون به انصرافهم عن ملة إبراهيم عليه السلام، فإذا أمعنوا النظر بعين الإنصاف وأجالوا الفكر بعيدا عن التشبث بما هم عليه، وجدوا أن الدين الحق هو اتباع ملة إبراهيم عليه السلام.

كما تراه في منهج تهذيبه للنفس وعلاجه لها ابتغاء صلاحها، ينظر في طواياها ــ متغلغلا في أعماقها ــ إلى ما فيها من فطرة طيبة تهفو إلى الخير، وتسعد بإدراكه، وتأسى للشر وتحزن من ارتكابه، وينظر إلى نزعاتها الطائشة التي تشرد بها عن سواء السبيل، وتزين لها فعل ما يعود عليها بالضرر والسوء، فيهذب هذه النزعات، ويكفكف من حدتها باستنزال طائرها، ويدعم تلك الفطرة، ويجلي أشعتها، مستدرجا تلك النفوس شيئا فشيئا نحو سلامة الفطرة وأنوار الشرع الحكيم.

ولعل هذا ما دفع ابن الأثير ليقول عن الاستدراج: "إذا حقق النظر فيه علم أن مدار البلاغة كلها عليه؛لأنه لا انتفاع بإيراد الألفاظ المليحة الرائقة ولا المعاني اللطيفة الدقيقة دون أن تكون مستجلبة لبلوغ غرض المخاطب بها"[1]

وفيما يلي عرض لبعض مقامات الاستدراج في القرآن الكريم، تتجلى فيه ملمح نجاعة هذا الأسلوب فيما استخدم فيه، وكيف أنه يترقى بالمخاطب عبر مستويات وصولا به إلى الهدف في تؤدة، ورفق ولين.

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ج: ٢، ص: ٦٤

المقام الأول: السياسة والحكم، وإدارة شئون الدولة.

قال تعالى: ﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾[1]

وهومما جاء على الكِياسة والتلطف للأخذ بمجامع القلوب في الاستمالة والاستدراج، والإذعان والانقياد، والتقريب والإدناء، بأدق العبارات وألطفها، مخافة البعد عما تقتضيه الحنكة في اتخاذ القرار، وما تتطلبه الحكمة من حسن التقدير قبل التدبير، ومحاذرة الانقياد للجهالة والغرور، واتقاء المخالفة في الرأي، وذلك من عدة أوجه:

أولا: صدرت الكلام بالنداء بقولها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟﴾، والملأ: الجماعةُ أمْرُهم واحد، ورأيهم واحد، من قولهم: تمالأ القوم إذا اتفقوا على شيء،لأنّهم يُمالىء بعضهم بعضاً، أي يعاونه ويوافقه، ويطلق على أشراف القوم، وقَادتهم.

وفيه من التقدير والإنصاف لهم ما لايخفى، لأنه كالاعتراف منها بحاجتها إليهم، واعتمادها عليهم، وأنهم أهل الرأي والمشورة الذين لا يقطع أمر إلا بحضورهم، ولا يتخذ قرار إلا بشهودهم، وهو أول درج الاستدراج للاذعان والانقياد.

ثم إنها قد استفتتهم بقولها: ﴿أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى﴾، وهو مشتق من الإفتاء بمعنى: الإرشاد إلى إزالة حيرة،فكأنها بهذا الطلب تعلن عن حيرتها في أمرها، وعدم

(١) سورة النمل: ٢٩-٣٤

قدرتها على التوصل فيه إلى الصواب، لذا تطلب منهم التقوي ببيانهم، والاسترشاد ببصيرتهم، فجعلتهم أهل التَّحاكُم والإفتاء.

ثم إنها أوقعت الفعل على ضميرها وأضافت إليها "الأمر" أي: الحال والشأن والحادثة المعينة، فقالت: ﴿أَمْرِي﴾، وهو في الحقيقة أمر الدولة، وشأنها، لا أمرها وشأنها، إلا أنها تجعل الملأ بهذه الإضافة من خاصتها وعشيرتها، وحاشيتها وحشمها الذين يطلعون على شئونها، فكأنها تستنزل إليهم من عليائها، وتجعلهم بحذوها، لتستل ما عساه يكون في نفوسهم من ضغن بسبب ملكها.

ثم أكدت أن ذلك دأبها وعادتها معهم، وليس لما حزبها من مُهِمٍّ شديد، فهي لا تقطع أمرا إلا بحضورهم، ولا تعمل عملا إلا بشهودهم، وهو استدراج لهم لاستجلاب رضاهم عن حكمها وقناعتهم بملكها، حتى إذا قضت بما ترى نزلوا على قضائها، وتحزبوا حول حكمها، فتضمن بذلك وحدة الصف، وقوة الدولة.

ويبدوا أن هذا القدر من التكايس معهم، والاستدراج لهم،لم يكن كافيا ليفوضوا لها الأمر من البداية ــ وقد أدركوا بخبرتهم، وحنكتهم ميلها إلى المسالمة ــ بل أعلنوا عن مخالفتهم لها في الرأي بقولهم: ﴿نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُوْلُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ مُعَرِّضين برغبتهم في المناوصة والقتال، لما يمتلكونه من وسائل القدرة والغلبة، وما يحوزونه في جيوشهم من كثرة القادرين على القتال، والعارفين بفنونه وأساليبه.

فهو تصريح باستعدادهم للحرب دفاعا عن مُلكهم، وتعريض بميلهم إلى الدفع بالقوة في حال أُكرِهوا على الدخول تحت طاعة سليمان عليه السلام؛ لأنهم حملوا مضمون كتابه على ما قد يفضي إلى خضوعهم باعتبار نظرهم إليه

عليه السلام على أنه لا يتجاوز كونه ملكا يطلب منهم الاستسلام لا نبيا يدعوهم إلى الإسلام.

وهو رد يفتقر إلى الحنكة، ولا يستند إلى الحكمة، بل ينطلق من الشعور بالقوة، والإعجاب بالكثرة، دون نظر لعواقب الأمور إن أشعلت الحرب نارها، وأطلقت الملوك عنان غضبها.

وفيه ــ إلى جانب ذلك ــ من الدهاء والمكر ما جمع بين إظهار الطاعة، وإعلان الانقياد للملكة مع مخالفتها فيما تراه من المسالمة، فضلا عن تضمنه دعوتها إلى معاودة النظر فيما تراه، من إيثار المسالمة على المنابذة وذلك في قولهم: ﴿ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ حيث فوضوا الأمر إليها لتنظر ما تأمرهم به ــ على اعتبارهم أولوا قوة، وأولوا بأس شديد، وأنهم من أبناء الحرب لا من أبناء الرأي والمشورة ــ فيمتثلونه، وإلا لقالوا: والأمر إليك فانظري ماذا ترين ؟!.

ولذلك عاودت الملكة استدراجهم، وطلبت إذعانهم، واستدعت مقادتهم من طريق آخر أنصفتهم فيه على سبيل الفرض والتقدير بضرب من الحيلة والمخادعة، لتحثهم على التفكير فيما مالوا إليه من رغبة في القتال، وما عدلوا عنه مما رأته من المسالمة، وذلك بإدخال الشك على زعمهم الانتصار إن هم ذهبوا للقتال، وكأنها تُعرِّض بمقالتهم التي خلت من الفكر، ونأت عن الحكمة، وشطت عن التفكر في العواقب إن كانت الهزيمة من نصيبهم، مستدعية شواهد التاريخ، وسنن الملوك إذا دخلوا قرية منتصرين؛ لتستدل على المستقبل بحكم ما مضي على طريق الاستصحاب، فقالت: ﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ إبطالا لما مالوا إليه، مؤكدة قولها؛ اهتماما بمضمونه، وإشارة لتحقيقه.

يقول البيضاوي: وقولها فيه " تزييف، لما أحست منهم من الميل إلى المقاتلة بادعائهم القوى الذاتية والعرضية، وإشعار بأنها ترى الصلح مخافة أن يتخطى سليمان خططهم فيسرع إلى إفساد ما يصادفه من أموالهم وعماراتهم"(١).

وهو كمال الاستدراج وغايته لأنهم صاروا به مذعنين، ولحكمها خاضعين؛ ذلك أنها خوفتهم ذهاب سلطانهم، ونهب أموالهم، وسبي نسائهم إن دخلها سليمان عليه السلام عنوة، وبات ملكها إليه.

فحصلت بهذا الأسلوب مقصودها من صيانة ملكها، وطاعة ملئها، ونفاذ رأيها، ووحدة صفها، ووقاية شعبها ويلات الحرب وتبعاتها.وذلك قولها: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾.

وقد أتت بالجملة الاسمية الدالة على الثبات، المصدرة بحرف التحقيق للإيذان بأنها مزمعة على رأيها لا يلويها عنه صارف، ولا يثنيها عاطف، مما يدل على أنها إنما جمعتهم ليس لتسترشد برأيهم، أو تستنير ببيانهم بل لتتجنب معارضتهم لما كانت قد اهتدت إليه بحكمتها ــ قبل اجتماعهم ــ من مهادنته عليه السلام بحسن سياستها، ورجاحة عقلها، وباستدراجها لهم لم يخالفوها الرأي بل سلَّمُوا لها بما أزمعت عليه، وتوصلت إليه.

---

(١) تفسير البيضاوي " أنوار التنزيل وأسرار التأويل " لـ: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي المتوفى: ٦٨٥هـ، ت: محمد عبد الرحمن المرعشلي، ج: ٤، ص: ١٦٠، ط: ١، سنة: ١٤١٨ هـ، دار إحياء التراث العربي – بيروت

فتمثل استدراجها، وتجلت سياستها للوصول إلى غايتها في عدة مستويات كما يلي:

ـ تقدير وانصاف قادة جيوشها، وصفوة شعبها، بإظهار حاجتها إليهم، واعتمادها عليهم فيما يعن لها من أمور السياسة والحكم، وأنها لا يمكن لها أن تتخذ قرارا، أو تقطع عهدا دون الرجوع إليهم.

ـ الانصات إلى آرائهم وعدم تسفيهها أو الحط من قدرها.

ـ خوفتهم إفساد البلاد وتخريبها، وضياع نفوذهم وذهاب عزهم إن ساست سياستهم، دون سايستها، وعملت برأيهم دون رأيها.

ـ وجهتهم إلى النظر والاعتبار بما حدث لقرى أخرى دخلها الملوك عنوة من تخريب وتدمير، وسفك دماء، وسبي نساء، وأنها تخشى أن تكون عاقبة بلادها، كعاقبة تلك البلاد.

ويشيع في مستويات الاستدراج ـ هنا ـ قدر كبير من الحكمة، والحنكة، وحسن السياسة، وروعة الكياسة، ومهارة القيادة، والتذكير بالعواقب، وتوجيه النظر إلى الاعتبار بأحداث التاريخ، فضلا عن نفاذ الرؤية، وصفاء البصيرة.

المقام الثاني: ترقيق العاطفة عند النزاع في الطلاق

﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[1]

وردت الآيات في سياق بيان القرآن لأحكامٍ متعلقة بطلاق المرأة قبل الدخول بها.ونظرا لما يتركه الطلاق من آثار نفسية مؤلمة، وجراح معنوية غائرة لدى الطرفين، فقد حاول القرآن الكريم أن يمحو تلك الآثار، ويداوي تلك الجراح، ليبقي على صفاء النفوس، ووشائج القربى، والمودة الإنسانية قائمة بين الناس في مقام مفعم بالأسى والحزن، وخيبة الرجاء، والظنون السيئة، والشكوك في صدق النوايا وصفاء السريرة إلى حد الاعتقاد في أن التطليق ما قصد به إلا الإضرار، وإنزال الأذى، وأن الإقدام على التزوج لم يكن بقصد طلب الثواب والعصمة، ودوام الصحبة، وإنجاب الذرية، مما تنطلق معه ألسنة أصحاب النفوس الضعيفة والقلوب المريضة الذين ينظرون إلى الأمور بعين مرمدة، مدعين أن التطليق ما وقع إلا لشيء به أو بها، أو عيب فيه أو فيها.

في هذا المقام المكفهر الذي لا يرى فيه أثر لبشر أو فرح، بل تطل أشباح الخصومة برؤوسها البغيضة، ووجوهها الكالحة داعية إلى الانتقام والقطيعة، واللجاجة في الخصومة إلى حد الفجور في بعض الأحيان.

---

(١) سورة البقرة: ٢٣٦-٢٣٦

أقول: في هذا المقام يستدرجهم القرآن الكريم، ويتلطف بهم كأنما يفتل في الذروة والغارب حتى بلغ ما أراد من التعامل بالفضل والإحسان تحصيلا للتقوى، وتطييبا للقلوب، واستبقاء للمودة الإنسانية قائمة بين الناس.

وقد سلك القرآن الكريم إلى هذا الهدف سبيلا واصلا متدرجا في عدة مستويات على النحو التالي:

المستوى الأول: ﴿جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾

حيث بدأ بتطييب نفس المطلق برفع الحرج، ونفي الإثم عنه؛ لأنه لما كان الأصل في التزوج طلب العصمة، ودوام الصحبة، والتماس الثواب، ظن المطلق قبل الدخول أنه قد وقع في المنهي عنه،لما أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه عن شهر بن حوشب أنه قال:

"تزوج رجل وامرأة على عهد النبي ــ صلى الله عليه و سلم ــ فطلقها، فقال له النبي ــ صلى الله عليه و سلم: طلقتها ؟ قال: نعم، قال: من بأس؟ قال: لا يا رسول الله. ثم تزوج أخرى، ثم طلقها، فقال له رسول الله ــ صلى الله عليه و سلم ــ طلقتها ؟! قال: نعم، قال: من بأس ؟ قال: لا يا رسول الله، ثم تزوج أخرى ثم طلقها، فقال له رسول الله ﷺ أطلقتها ؟! قال: نعم، قال: من بأس؟ قال: لا يا رسول الله. فقال رسول الله ــ صلى الله عليه و سلم ــ في الثالثة: " إن الله لا يحب كل ذواق من الرجال، ولا كل ذواقة من النساء".(١)

فيقع في نفس المطلق قبل البناء بالزوجة أنه يأثم بذلك، فرفعت الآية الجناح، ونفت مقارفته الاثم بالتطليق إذا كان نكاحه على المقصد الحسن،

---

(١) المصنف في الأحاديث والآثار لأبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي،جـ: ٤، ص: ١٨٧ مكتبة الرشد – الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٩، ت:كمال يوسف الحوت.

وتطليقه لضرورة على الوجه المندوب؛ لئلا يحيا تحت وطأة الشعور بتأنيب الضمير، واقتراف الإثم.

وهو تهيئة نفسية للمضي به في طريق الاستدراج حتى يتلقى الأمر بفرض عطية للمطلقة حسب قدرته عسرا أو يسرا – بنفس مدينة بالشكر لله على رفع جناح التطليق عن كاهلها ــ إذا لم يكن قد فُرِض لها مهر قبل العقد، تطييبا لقلبها المكلوم، وجبرا لخاطرها المنكسر، وتعويضا لها عما ألم بها من أذى بسبب الطلاق في حال ما إذا كانت متعلقة بالزوج، راغبة في دخوله عليها، ودوام عشرته لها.

المستوى الثاني: راعى في مقدار المتعة حال المطلق فيدفع الفقير ما يناسب حاله وطاقته، و يدفع الغني ما يناسب غناه وسعته، وذلك في إطار المعروف، وبالقدر المتعارف عليه بين العقلاء، وعلى الوجه الذي تستحسنه الشريعة والمروءة، فلا يقبل من الغني مالا يتناسب مع غناه، ولا يكلف الفقير بدفع ما لا يطيقه ضيق عيشه، وقلة حاله.

وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾

وبذلك التدرج، وهذا التلطف، تطيب نفس الزوج وتسمح بما يدفع، وتذهب وحشة الطلاق عن المرأة وينجبر خاطرها بما تأخذ.

المستوى الثالث: ويمثله قوله تعالى: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ حيث جعل المتعة حقا للمطلقة ــ في حال لم يفرض لها مهر ــ ثم استدرج المطلق لدفعها عندما جعلها حقا على المحسنين،فسماه محسنا بصيغة تدل على الثبوت والدوام قبل قيام الإحسان به؛ إغراء له بالامتثال ودفع المتعة – مع عدم انتفاعه

بالزوجة ــ عن طيب خاطر وسماحة نفس، لأنه بذلك يؤول ويرتقي إلى درجات المحسنين.

كما أن التأكيد على كون المتعة حقا هو مما يطيب به خاطر الزوجة المكلومة بالطلاق، وتستهنئ به وتستمرئ أكل ذلك المال..)[1]

المستوى الرابع: دعوة الطرفين إلى العفو والتنازل عن الحق.

أما إذا كان الزوج قد فرض لها فريضة، فقد أوجب عليه القرآن أن يدفع لها نصف ما فرض قال تعالى: ﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ ﴾

وفي الجانب الآخر فقد استنزلت الزوجة إلى معاملة الزوج بالفضل والإحسان إذا كان الطلاق بسبب منها والزوج راغب في دوام عشرتها لتعلق قلبه بها واستحسانها لها، فيكون قد بذل من من ماله للزوجة من غير أن ينتفع بها، فيكون ذلك سببا في تأذيه منها وذلك على النحو التالي:

أولا: جعل المتعة حقا للمطلقة ــ في حال لم يفرض لها مهر.

ثانيا: أوجب على الزوج أن يدفع لها نصف ما فرض في حال ما إذا كان قد فرض لها فريضة، قال تعالى:، وذلك مما تطيب به نفسها، وتستشعر معه الرضا بهذا التشريع الذي يصون كرامتها، ويحفظ حقوقها، ويأبى أن يجعلها متاعا يلقى به عندما ينعطف الطريق، أو تتقلب الأمزجة، وتثور الأهواء، بل جعلها صاحبة عفو، وصاحبة قرار.

وهو استدراج يؤسس لإجابة الزوجة إلى ما دعيت إليه من العفو، وانتدابها إلى ما ندبت إليه من ترك المهر بالكلية تحصيلا للتقوى، وتطييبا

(١) راجع حاشية شيخ زاده على تفسير البيضاوي، جـ: ١، ص: ٥٤٩.

لقلب الزوج المحب، واستبقاء للمودة الإنسانية قائمة بين الناس، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ﴾ أي: "المطلقات عن أزواجهن فلا يطالبنهم بنصف المهر، وتقول المرأة: ما رآني ولا خدمته ولا استمتع بي، فكيف آخذ منه شيئا؟!"(١).

فإذا فعلت الزوجة ذلك كانت جديرة بأن ﴿يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾، أي الزوج عن نصف ما فرض، ويترك لها المهر بالكلية.

وقد سلك القرآن الكريم في هذا سبيلا واصلا عندما أقام المظهر موضع المضمر، والتفت عن خطابهم في صدر الآية إلى التعبير عنهم ــ هنا ــ بلفظ الغيبة تنبيها على المعنى الذي من أجله يرغب الزوج في العفو وإكمال المهر، والمعنى: إلا أن يعفون أو يعفو الزوج الذي حبسها، مالك عقدة نكاحها عن الأزواج، ولم يكن منها سبب في الفراق، وإنما فارقها بإرادته، وعفوه إذا سلم كل المهر أن لا يرتجع النصف بالطلاق، أو إن لم يسلم وفاه كاملا(٢).

وهذا تأسيس على ما كان غالبا عندهم حال إرادة التزوج، حيث يساق إليها المهر كاملا، فإذا طلقها قبل الدخول فقد استحق أن يطالبها بنصف ما ساق إليها فإذا ترك المطالبة فقد عفا"(٣)

المستوى الخامس: حض الطرفين على الإحسان والتفضل فيما بينهما.

---

(١) الكشاف للزمخشري، جـ: ١،ص: ٣١٣، ٣١٤.

(٢) راجع حاشية شيخ زادة على تفسير البيضاوي، جـ: ١، ص: ٥٥٠، وفتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب للطيبي، جـ: ٢، ص: ٤٦٥.

(٣) راجع تفسير الكشاف، جـ: ١، ص: ٣١٥، وحاشية شيخ زادة على تفسير البيضاوي، جـ: ١، ص: ٥٤٩.

لم يكتف القرآن بالحض على العفو في المستوى السابق فحسب بل تدرج حتى جعل العفو في مقامهما هذا أقرب إلى صفة التقوى من التمسك بالحق.

قال تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ ذلك لأن التمسك بالحق وإن كان لا ينافي التقوى، إلا أنه يؤذن بتصلب صاحبه وشدته، والعفو يؤذن بسماحة صاحبه ورحمته، والقلب المطبوع على السماحة، والرحمة أقرب إلى التقوى من القلب الصلب الشديد".(١)

ثم حثهما جميعا على الإحسان والتفضل فيما بينهم بإعطاء الرجل تمام الصداق، أوترك المرأة نصيبها، معللا ذلك كله بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، فهو سبحانه يرى أفعال العباد ويجازي عليها.

ومما زاد من حس الاستدراج وبلاغته، وضاعف من تأثيره في استنزال طائر الزوجين إلى قبول التشريع الإلهي ومخالفة هوى النفس الداعية إلى الشقاق في بيان تلك الأحكام، بعد الآية عن الأساليب التقريرية وتركيزها على إثارة العواطف والمشاعر بأن ذكرتهما بما كان بينهما من الفضل، وحببت إلى نفسيهما عمل الخير، وأضاءت لهما طريق الفوز بحبه جل وعلا، دون قصور في الصياغة أو ضعف في المعنى.

تعدد مستويات الاستدراج هنا راجع لعدة أمور:

أولا: ما يخلفه التطليق من آثار نفسية مؤلمة، وجراح معنوية غائرة لدى الطرفين.

---

(١) التحرير والتنوير، ج: ٢، ص: ٤٦٤.

ثانيا: ما يغلب شيوعه في مثل ذلك المقام من الأسى والحزن، وخيبة الرجاء، والظنون السيئة، والشكوك في صدق النوايا وصفاء السريرة إلى حد الاعتقاد في أن التطليق ما قصد به إلا الإضرار، وإنزال الأذى.

ثالثا: ما يفرضه التشريع من غرم مالي يقع على كاهل الزوج متمثل في عطية للمطلقة تتفاوت في مقدارها حسب تفاوت قدرته عسرا أو يسرا، وهو أمر قد يثير حنق الزوج وغيظه.

رابعا: ما تفتقر إليه الزوجة والحال كذلك من تطييب لقلبها المكلوم، وجبر لخاطرها المنكسر، وتعويض لها عما ألم بها من أذى بسبب الطلاق في حال ما إذا كانت راغبة في دخوله عليها، ودوام عشرته لها.

لذا تعددت مستويات الاستدراج لاستنزال طائر الزوجين وصولا بهما إلى تذكر ما كان بينهما من فضل، وحتى يحل الأمل محل اليأس،والتفاؤل محل التشاوم، والرغبة في حب الله والطمع فيما عنده محل الرغبة في النتقام واستيفاء الحقوق.

وقد اتسم الاستدراج ــ هنا ــ بالتركيز على إثارة العواطف والمشاعر، والتذكير بما كان من الحب والفضل.

المقام الثالث: تعيين الدين الحق

قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾[1]

وهو مما جاء على سبيل الاستدراج وإرخاء العنان مع الخصم حيث يراد تثبيته، وتوقيفه على الدين الحق، وإلجاؤه إلى الاعتراف به،على حد قولك لمن تشير عليه بالصواب، وأنت تعلم ألا صواب غيره: إن كان عندك رأي أصوب منه فاعمل به. تريد تثبيته، وتوقيفه على أن ما رأيت لا رأي وراءه، وكأنك تلتمس له ما يتوقع أن يحتج به لانصرافه عن رأيك، فإذا أمعن النظر، وأطال الفكر، لم يجد خيرا منه، فينزل عليه عن كمال رضا وفرط قناعة.

ذلك أن رؤوس يهود المدينة، ونصارى أهل نجران كانوا يخاصمون المسلمين في الدين، يزعم كل فريق أنه أحق بدين الله من غيره، فقال اليهود: نبينا أفضل الأنبياء، وكتابنا أفضل الكتب، وديننا أفضل الأديان، وكفروا بعيسى عليه السلام والإنجيل، وبمحمد ﷺ والقرآن، وقالت النصارى: نبينا أفضل الأنبياء، وكتابنا أفضل الكتب، وديننا أفضل الأديان وكفرت بمحمد ﷺ

(١) سورة البقرة: ١٣٥-١٣٨

والقرآن، وقال كل واحد من الفريقين للمؤمنين: كونوا على ديننا فلا دين إلا ذلك، وما الهدى إلا ما نحن عليه، فأنزلت الآية[1]

﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ ﴾ والضمير الغائب لأهل الكتاب، و "أو" لتنويع المقال، لا للتخييرأي قال اليهود للمؤمنين: كونوا هودا، وقالت النصارى لهم: كونوا نصارى، و﴿ تَهْتَدُواْ ﴾ جواب الأمر، أي: إن كنتم كذلك تهتدوا.

وقد أمر ﷺ بالرد عليهم بقوله تعالى: ﴿ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾. أي قل لهم ــ على سبيل الرد عليهم،وتعيين الدين الحق،والإرشاد إليه ــ بل ملة إبراهيم، أي: بل نكون أهل ملته، وهو مقتضى رعاية جانب لفظ ما تقدم، أو بل نتبع ملته ﷺ على تأويل الكون بالاتباع أي: اتبعوا ملة اليهود أو النصارى، فيكون ميلا إلى جانب المعنى.

ثم بين هذا الاتباع المأمور به بقوله تعالى: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ فهو بمنزلة بدل الاشتمال من قوله سبحانه: ﴿ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ ﴾ لما فيه من تفصيل الاتباع المأمور به، أو بدل بعض لاقتصاره على بيان أحد شطري الإتباع وهو الاعتقاد دون العمل.

---

(١) راجع أسباب النزول للواحدي، توزيع دار الباز للنشر والتوزيع، مكه المكرمة، ناشر مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع ١٣٨٨ه – ١٩٦٨ م

وقيل: هو بمنزلة الجواب لسؤال مقدر، كأنه ﷺ لما قال في الرد عليهم: ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ سئل عن كيفية اتباع ملة إبراهيم عليه السلام أو أن يكون المرء من أهلها فكان الجواب ذلك.ولذا فصل عما قبله.

وقد أريد تثبيت الفريقين اليهود والنصارى وتوقيفهم على الدين الحق، واستدراجهم إلى الايمان به بعد تفصيل وبيان ما اشتمل عليه اتباع الملة من الايمان بالله، وأنبيائه، والكتب المنزلة عليهم، والإيمان بكل ما أوتيه الأنبياء من من المعجزات،وعدم التفرق بينهم في ذلك فكان قوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ وفيه حض لليهود والنصارى واستدراج لهم من ألطف طريق وأرفقه إلى الدخول في الدين الحق(١).

وذلك من عدة أوجه:

أولا: جيئ بإن مع أن مما فصلته الآية وبينته من اتباع الملة قد اشتمل على الإيمان بما أوتيه موسى وعيسى ــ عليهما السلام ــ بوجه خاص اهتماما بشأنهما، حيث أفردا بالذكر، ولم يدخلا في الموصول الأول، ثم دخولهما مرة ثانية في التعميم المفهوم من قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ فضلا عن عدم التفريق بينهما وبين سائر الأنبياء في هذا الشأن مما يجعل دخولهم في الدين الحق متوقعا.

---

(١) ينظر روح المعاني لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي، تحقيق: على عبدالباري عطية، دار الكتب العلمية، بيوت، لبنان، الطبعة الأولى، ج: ١، ص: ٣٩٤.

جيء بها لما تفيده من مجرد الفرض والشك في حصول شرطها إيذانا بأن إيمانهم غير مرجو، أي: على فرض إيمانهم وهو أمر غير محقق الوقوع، فيجعل إيمانهم ــ مع ذلك ــ كالمحال أو مستبعدا، تنبيها على شدة تمسكهما بما هم عليه، وتسليم مقادتهما للباطل تكبرا على الحق ومعاندة وغرورا.

ثانيا: خلا نظم الآية وبناؤها من إشارة لوجود إلزام لهم أو إكراه على الدخول في الدين الحق واتباع الملة، بل منحوا حرية الاعتقاد، وكأني بالمؤمنين الأوائل يستدرجونهم، ويتلطفون بهم قائلين: نحن لا ندعي كوننا على الحق وأنتم على الباطل، ولكننا نرى أن الدين الحق المفصل بالإيمان بالله تعالى، وبجميع أنبيائه ورسله، في اتباع ملة ابراهيم، وأن ذلك عين الاهتداء، فإن حصلتم دينا مساويا لما نحن عليه مما يجب التدين به، فقد اهتديتم، والهداية مقصودنا جميعا كيفما كانت، وأينما وجدت.

وكأن الآية تلتمس لهم ما عساهم يبررون به انصرافهم عن ملة إبراهيم عليه السلام، فإذا أمعنوا النظر بعين الإنصاف وأجالوا الفكر بعيدا عن التشبث بما هم عليه، وجدوا أن الدين الحق هو اتباع ملة إبراهيم عليه السلام وهو ما سبقهم المسلمون إليه.

ثالثا: ليس في الآية ما يشير إلى مطالبتهم بأن يكونوا تابعين للرسول ﷺ أو لمن آمن معه، أو أن يكونوا مثلهم؛ مما يجعلهم دون المسلمين، بل جعلت الاتباع لملة إبراهيم عليه السلام على الوجه الذي فصل، وإذا وجدت هناك أفضلية فهي لمن جاء بهذا الاتباع على وجهه الصحيح اعتقادا وعملا.

ذلك لما درج عليه جل الناس من الأنفة في اتباع الآخر خاصة إذا كان يراه أقل منه في المال أو الخلقة، أو غير ذلك، وكذلك كان المشركون يتمنون

أن لو نزل القرآن على رجل عظيم فلا يجدون في اتباعه حينئذا ــ وهم السادة ــ حرجا.

رابعا: خلت الآية من إشارة لوجود نفع للمسلمين في اتباع اليهود والنصارى ملة إبراهيم على الوجه الذي تم تبيينه، بل فائدة ذلك ونفعه يعود عليهم دون غيرهم اهتداء ونأيا عن الشقاق وتنعما براحة الضمير وصلاح البال في الدنيا.

خامسا: تفترض الآية ببديع نظمها أنه لا تزال في نفوسهم بقية من خير، وفي قلوبهم أطلال من صفاء، وفي عقولهم قسط من فكر منصف، وفي ساحتهم رغبة في الاهتداء تدفعهم للبحث عن الدين الحق، والإذعان له، والقبول به.

وفي ذلك عدم تسفيه لعقولهم، وتوسيع لدائرة حريتهم في البحث، واتباع ما يرونه حقا مع بيان العاقبة لهم.

سادسا: في الآيات إرشاد لهم إلى اتباع ملة إبراهيم عليه السلام وهو عين الاهتداء، ولا شك أن الدلالة على الاهتداء خير من الدلالة على شخص الطريق الموصلة إليه، ذلك أن قول اليهود للمسلمين: كُونُواْ هُودًا تهتدوا، وقول النصارى للمسلمين: كونوا نَصَارَى تهتدوا لا يجوز أن يكون المراد به التخيير، لأن اليهود لا تجوز اختيار النصرانية على اليهودية وكذلك النصارى لا تجوز اختيار اليهودية على النصرانية، فكل فريق يدعو إلى دينه ويزعم أنه الموصل للهدى، وفي ذلك – على فرض صدقهم: دلالة على شخص الطريق الموصلة للاهتداء، مع تعددها لا الدلالة على عين الاهتداء.

سابعا: الباء في قوله: ﴿بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ للملابسة وليست للتعدية،والمعنى: إن آمنوا إيمانا مماثلا لإيمانكم، فالمماثلة بمعنى المساواة في

العقيدة، والمشابهة فيها ليست باعتبار تعدد الأديان؛ لأن ذلك ينبو عنه السياق بل باعتبار أصحاب العقيدة، وإلا فالذي آمن به المؤمنون ليس له مثل.

فالمراد: ما يكون مِثْلا له على سبيل الفرض والتقدير، حيث علق اهتداءهم على إيمانهم ذلك بكلمة " إن " المؤدية لكون مدخولها مشكوكا مفروض الوقوع.

والمعنى: إنهم إن حصلوا دينا آخر مماثلا لدينكم في الصحة والاستقامة، وآمنوا به فقد اهتدوا، ولكن تحصيل دين مماثل لدين الإسلام مستحيل، فإذا تفكروا في ذلك علموا بيقين أن لا مثْل لدين الإسلام، فيثبت بذلك أن تحصيل الدين المماثل لدين الإسلام مستحيل، فيستحيل اهتداؤهم بغيره، لأن الموقوف على المحال محال[1].

وهو أسلوب لا يخلو من التبكيت، والتقريع والتأنيب، إذا التمسوا إيمانا مماثلا لما عليه المسلمون فلم يجدوه، ثم تمادوا في التكبر والتباعد عن الحق.

وهو استدراج يعكس ما كان عليه القوم من علم بالأديان،والأنبياء، والكتب السماوية المنزلة عليهم، وما بشرت به من بعثة الرسول ﷺ لذا لم تتعدد مستوياته، بل غلب عليه سمت العرض، وشاع فيه إطلاق الحرية، وإرخاء العنان للمستدرَج؛ لأن لديه من العلم ما يلجئه إلى الدخول في الدين الحق.

(١) ينظر حاشية شيخ زادة على البيضاوي، ج: ١، ص: ٤٣٨.

المقام الرابع: الترغيب في المباح خشية الوقوع في المحرم.

الإسلام لم يعالج غرائز الإنسان بالكبت العنيف قط، بل شرع له منهجا وسطا بين الإفراط والتفريط، وهو في ذلك ينطلق من احترامه للفطرة الإنسانية السليمة الخالصة، فيبيح له التوسع الطيب، ويَعُدُّ التدخل بالحظر أوالتحريم، أوالتضييق على رغباته المعقولة من متاع الحياة وسعتها التي لا حرج فيها مدرجة إلى عمل السوء والفحشاء.

لذا قبل أن ينهاه عن اتباع خطوات الشيطان أباح له الأكل مما في الأرض حلالا طيبا. يقول ــ سبحانه ــ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ١٦٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ﴾(١).

وإذا كانت الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث قد زينت للناس فأحبوها، فلا حرج في ذلك؛ لأنه الاستجابة لنداء الفطرة التي لا تختلف باختلاف الأمم والعصور والأقطار، فالميْل إلى النساء مركوز في الطباع، وضعه الله تعالى لحكمةِ بقاء النوع حتى لا يحتاج إلى تكلّف رُبَّمَا تعقبه سآمة.

وكذلك محبّة الأبناء، حيث يجعل الله في الوالدين شعوراً وجدانياً بأنّ الولد قطعة منهما؛ ليكون ذلك مدعاة إلى المحافظة عليه، فبقاؤه بقاء للنوع، وحفظ له من الاضمحلال.

وهو ــ أي حب الشهوات ــ أمر لم يجرمه القرآن، ولم يقم بحظره على الإنسان، بل أقره، يتجلى ذلك في تدعيم تلك الفطرة والتنفيس عنها في إطار

(١) سورة البقرة: ١٦٨ – ١٦٧

من الترويض لذلك الحب بتوجيهه إلى ما هو من جنس تلك الشهوات إلا أنه خير منها، وهو الخلود في جنات تجري من تحتها الأنهار، والتمتع بأزواج مطهرة ممّا يعتري نساء البشر ممّا تشمئزّ مِنه النفوس.

ثم هناك ما هو خير من ذلك وأفضل وأعظم لمن ارتقى بنفسه وسما بهواها عن تلك الشهوات وهو ورضوان من الله جل وعلا. قال تعالى:

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾[1]

غير أن من الناس من تثقل بهم أهواؤهم دون هذا المستوى، فينصاعون لها، وينقادون لوساوسها، فلا هي تنقضي ولا هي تشبع نهم نفوسهم؛ لأن النفس كلما ألفت موطنا لشهواتها أحبت الانتقال إلى موطن آخر، غير مبالية ــ في رتْعها الدائم ــ بارتكاب الآثام، يظاهرها على ذلك طباع رديئة دائمة الإلحاح بالانحراف عن الفطرة بين الحين والحين.

مثل هذه النفوس المختلة لن يكفكف من شرها كبت أو تحريم أو تضييق، بل لا يسكن ثوران أهوائها إلا عامل لا يقل عنها قوة وتأثيرا يعيد إلى تلك النفوس اعتدالها وتوازنها.

والقرآن في منهج تهذيبه للنفس وعلاجه لها ابتغاء صلاحها، ينظر في طواياها – متغلغلا في أعماقها – إلى ما فيها من فطرة طيبة تهفو إلى الخير، وتسعد بإدراكه، وتأسى للشر وتحزن من ارتكابه، وينظر إلى نزعاتها الطائشة

(١) سورة آل عمران: ١٤ ــ ١٥

التي تشرد بها عن سواء السبيل، وتزين لها فعل ما يعود عليها بالضرر والسوء، فيهذب هذه النزعات، ويكفكف من حدتها باستنزال طائرها، ويدعم تلك الفطرة، ويجلي أشعتها، مستدرجا تلك النفوس شيئا فشيئا نحو سلامة الفطرة وأنوار الشرع الحكيم.

ومما فاقت روعته – في هذا الباب– كلَّ تقدير، وجاء في عبارات هي أقصى ما يمكن أن يكون عليه الاستدراج من التلطف والتأثير قوله تعالى: ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴾[1]

ذلك أن الحق ــ سبحانه ــ لما عَظَّم الله حق اليتامى في أموالهم فأمر الأولياءَ بحفظها، وعدم التفريط فيها. إلى أن تؤَدى إليهم، وجعل أَكلها ذنبا عظيما. أَتبع ذلك التوصية بحقوق اليتيمات: في أنفسهن، وفي أموالهن، أنهم كانوا يتزوجون من تحل لهم من يتامى النساء اللاتي يلونهم لكن لا رغبة فيهن بل في مالهن ويسيئون صحبتهن ويتربصون بهن أن يمتن فيرثوهن فوعظوا في ذلك.[2]

---

(١) سورة النساء:٢ –٣

(٢) التفسير الوسيط للقرآن الكريم لمجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، الطبعة: الأولى: ١٣٩٣ هـ ــ ١٩٧٣ م – ١٤١٤ هـ ــ ١٩٩٣ م، ج: ٢، ص: ٧٤٧، وما بعدها.

والمعنى: وإن خفتم ألا تعدلوا في حق اليتامى إذا تزوجتم بهن بإساءة العشرة أو بنقص الصداق فأنكحوا ما طابَ لَكُمْ مِنَ النِّساءِ أي فتزوجوا من استطابتها نفوسكم ومالت إليها قلوبكم من الأجنبيات(١)

فهو شروع في النهي عن منكر آخر كانوا يباشرونه متعلق بأنفس اليتامى أصالة وبأموالهم تبعا عقيب النهي عما يتعلق بأموالهم خاصة أخر عنه لقلة وقوعه بالنسبة إلى الأموال، فهو منزل من الأول منزلة المركب من المفرد.

يؤيد ذلك ما صح في سبب نزول هذه الآية مما رواه البخاري: "عن عروة بن الزبيرأَنَّهُ سَأَلَ السيدة رضي الله عنها عن هذه الآية، فقالت: يا ابن أختي: هذه اليتيمة تكون في حجر وليها فيرغب في جمالها ومالها، ويريد أن ينتقص من صداقها، فَنُهُوا عَنْ نِكَاحِهِنَّ إلا أن يُقْسِطُوا لهن في إكمال الصداق وَأُمِرُوا بِنِكَاحِ مَنْ سِوَاهُنَّ من النساء(٢)، وإلا فإنه يستضعفها ويستولي على مالها، وهي لا تقدر على مقاومته.

كما أن اشتمال هذه الآية على كلمة:﴿ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ يؤذن بمناسبتها للآية السابقة لأنه يُعلم من إطلاق لفظ اليتامى في الشرط ومقابلته بلفظ النساء في الجزاء أن اليتامى هنا يتيمة، وهي صنف من اليتامى في قوله السابق﴿وَءَاتُواْ

(١) مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد لمحمد بن عمر نووي الجاوي البنتني إقليما، التناري بلدا (المتوفى: ١٣١٦هـ)، ت: محمد أمين الصناوي، دار الكتب العلمية – بيروت، ط: الأولى – ١٤١٧ هـ، ج: ١، ص: ١٨٢.

(٢) الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي البخاري، ت: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط: الأولى ١٤٢٢هـ باب تزويج اليتيمة تحت رقم: ٥١٤٠، وباب: وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى تحت رقم: ٤٥٧٣

﴿أَلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾[1] وأن بين عدم القسط في يتامى النساء، وبين الأمر بنكاح النساء، ارتباطا لا محالة وإلا لكان الشرط عبثا. وهو من الإيجاز البديع.[2].

وعليه يكون المراد من اليتامى المتزوج بهن، والقرينة على ذلك الجواب؛ فإنه صريح فيه والربط يقتضيه، و﴿مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾: أي غير اليتامى لدلالة المعنى وإشارة لفظ النساء إليه.

ولما كانت النفس البشرية مجبولة على الرغبة فيما منعت منه؛ استنزل الأولياء في هذه الأية من ألطف وجه، وألين جانب إلى ما ترمي إليه من صيانة حق اليتيمات في أنفسهن وأموالهن على ما قد يكون لدى الأولياء من شدة احتياج لأمولهن، أو تعلق بجمالهن، عبر عد مستويات على النحو التالي:

المستوى الأول: عدم التشكيك في حسن رعاية الأولياء لليتيمات.

وذلك حيث جيء بـ "إن" لما تفيده من مجرد الفرض والشك في حصول شرطها إيذانا بأن رعايتهم لليتيمات، والقسط إليهن ليس محل اتهام، وأن عدم القسط إليهن أمر غير محقق الوقوع، تنبيها على أنهم من العفة والورع بمكان بحيث تأبى عليهم نفوسهم أن يأكلوا من مال اليتيمة أو أن ينظروا إليها نظرهم إلى المشتهاة.

وفيه من التحفيز النفسي للأولياء على قبول التوجيه القرآني في شأنهن، والسمو والتعالي على الرغبة فيهن أو في أموالهن.

---

(١) سورة النساء: ٢

(٢) ينظرالتحرير والتنوير، ج: ٤، ص: ١٥.

والتعبير بالخوف مع أن الذي علق به الجواب هو العلم بوقوع الجور أو عدم القسط المخوف لا الخوف منه، لئلا يخرج من دائرة الآية من يطيق الجور ولا يخافه، إيذانا بكون المعلوم وهو عدم القسط مخوفا. وأن الورِع التقي يلزمه ألا ينتظر حتى وقوع المخوف، بل إن مجرد الخوف من وقوعه دافع قوي لنأي العاقل عنه.

المستوى الثاني: ترقيق قلوب الأولياء.

ويتجلى ذلك في التعبير بلفظ: ﴿ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ بجملة الشرط في مقابلة: ﴿ٱلنِّسَآءِ﴾ بجواب الشرط فيه ترقيق لقلوب الأولياء، وتحريك لمشاعرهم، وإثارة لعواطفهم؛ لأنه يذكرهم بالحالة التي كانت عليها تلك الفتاة من اليتم والضعف والانكسار قبل بلوغها، فلا ينبغي أن يُجمع إلى جانب ذلك جور الولي، مما يكون أدعى لنظره إليها بعين الأبوة والرأفة والعدل والرحمة.

المستوى الثالث: تحويل رغبة الأولياء في التزوُّج عن اليتيمات.

لم تكتف الآيات بتحويل رغبة الأولياء في التزوُّج عن اليتيمات فحسب بل بالغت في استمالتهم، وترغيبهم، وتوجيه جانب الغريزة فيهم نحو النساء الأجنبيات باستخدام الفعل: ﴿مَاطَابَ﴾، أي: ما لا تحرج منه، لأنه في مقابل المتحرج منه من نكاح اليتيمة. وفيه إلى جانب ذلك تزهيد لهم، وصرف عن نكاح اليتيمة عند خوف عدم العدل رعاية ليتمهن وجبرا لإنكسارهن.

كما أن التعبير بلفظ: ﴿ٱلنِّسَآءِ﴾ في جواب الشرط بمقابل ﴿ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ في جملة الشرط فيه مزيد من ترغيب الأولياء واستمالتهم إلى الأجنبيات، وتزهيد في اليتيمة من جهة ما توحي به دلالة اللفظين، فاليتم يوحي بالانكسار،

والضعف، والفقر إلى الأبوة وكأنه لا محفز فيها للغريزة والشهوة بخلاف كلمة: ﴿ٱلنِّسَآءِ﴾ فتوحي بالنضج، والأنوثة؛ كونها في مقابل الرجال.

هذا فضلا عما توحي به من سعة في الاختيار، وتنوع الحسن، وتفاوت في الجمال، لما في قوله:**مَاطَابَ** من إطلاق، وهو عامل لا يقل عن رغبته في اليتيمة قوة وتأثيرا بل يتجاوزها؛ مما يعيد إلى نفسه اعتدالها وتوازنها، ويُحوِّله عن الرغبة فيها، أو في مالها، أو فهما معا إلى ذلك المؤثر القوي.

ونظم الآية، هنا ــ دال على فرط مراعاة ما ركبت عليه الطبائع، وجبلت عليه الغرائز، حيث أوثر الأمر بنكاح النساء الأجنبيات على النهي عن نكاح الفتيات اليتيمات ــ مع أنه المقصود بالذات في الآية حسبما دل عليه الحديث السابق الذي رواه البخاري عن السيدة عائشة ــ رضي الله عنها ــ، وذلك لما فيه من مزيد اللطف في إستنزالهم، فإن النفس مجبولة على الحرص على ما منعت منه.

ومما أعان على تحويل رغبة الأولياء عن اليتيمات توجيه النهي الضمني المفهوم من الخوف من الجور عليهن إلى النكاح المترقب، مع أن سبب النزول هو النكاح المحقق بدليل ما أخرجه البخاري عن عائشة أن رجلا كانت له يتيمة فنكحها، وكان لها عزق فكان يمسكها عليه ولم يكن لها من نفسه شيء فأنزل الله تعالى وإن خفتم إلخ (١) لما فيه من المسارعة إلى دفع الشر قبل وقوعه فرب واقع لا يرفع.

(١) صحيح البخاري تحت رقم: ٣٨٣٦.

هذا إلى جانب ما يفيده من المبالغة في بيان حال النكاح المحقق، فإن محظورية المترقب حيث كان للجور المترقب فيه، وبالتالي تكون محظورية المحقق مع تحقق الجور فيه أولى[1].

المستوى الرابع: تضييق دائرة الإباحة في التزوج من النساء الأجنبيات إلى أربع.

لما كانت الفطرة التي تصدر عنها شرائع الإسلام قد درجت على هداية الغرائز إلى صراط مستقيم، فلا هي تقتلها بالرهبانية،ولا هي تطغيها بالإباحية، بل أتاحت لها أن تتنفس في إطار من الشرع يلفه العفاف، لم تُتْرك الآيةُ على عمومها المفهوم من قوله: "ما طاب لكم من النساء" بل دخله التخصيص بقوله: "مثنى وثلاث ورباع "

وأما ما ذكره الزمخشري[2] من تفسير:" ما طاب " بما حل، لأن مِن النساء مَنْ يحرم نكاحها ففيه نظر ــ كما قال الفخر الرازي[3]ــ؛ لما يترتب عليه من خروج الآية عن الفائدة، لأنها تنزل منزلة ما يقال: أبحنا لكم نكاح من أحل لكم نكاحها تأسيسا على أن الأمر في قوله:" فانكحوا" يراد به الإباحة.

بل إنه على تقدير حمل الآية على ما ذكره الزمخشري تكون من المجمل لخلوها من أسباب الحل والإباحة المفصلة في مواضع أخرى، أما إذا حمل قوله: ﴿مَاطَابَ﴾ على ما ذكرمن الاستطابة وميل النفس فتكون الآية من

---

(١) ينظر: روح المعاني للألوسي لشهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي،ت: علي عبد الباري عطية، ج: ٢، ص: ٤٠١ دار الكتب العلمية – بيروت، ط: الأولى، سنة ١٤١٥ هـ

(٢) لكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، لأبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله، دار الكتاب العربي، بيروت، ج: ١، ص: ٤٦٨، ط: ٣، ١٤٠٧ هـ

(٣) ينظر مفاتيح الغيب للفخر الرازي، ج: ٩، ص: ١٤١.

العموم الذي دخله التخصيص، " وقد ثبت في أصول الفقه أنه متى وقع التعارض بين الإجمال والتخصيص كان رفع الإجمال أولى،لأن العام المخصوص حجة في غير محل التخصيص، والمجمل لا يكون حجة أصلا"(١)

المسنوى الخامس: التخويف من عدم العدل في حال التزوج بأكثر من واحدة.

استمرت الآية في استنزال الأولياء، وباتت تخاطبهم خطاب من استعاد وعيه بعد غفلة، ومن تحرر عقله بعد طول حصار، وكأن تلك الرغبات التي كانت تحول بينه وبين أن يخاطب خطاب المدرك.

فجاء قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا ﴾ صريحا في اعتبارعدم العدل وترك التسوية بين الزوجات في النفقة والكسوة والبشاشة والمعاشرة وترك الضر في كل ما يدخل تحت قدرة الكلف وطوقه دون ميل القلب سببا للتنازل في مراتب العدد من الأربع إلى الواحدة، ينزل به خوفه في كل مرتبة من مراتب العدد إلى التي دونها؛ حتى لا يختل نظام العائلة، وتحدث الفتن فيها، من عقوق الزوجات أزواجهن، والأبناء آباءهم، فيكون ذلك أسلم من الجور، وآمن من طغيان الرغبة وقت الغفلة.

---

(١) ينظرمفاتيح الغيب لفخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي، دار الكتب العلمية – بيروت – ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠ م، ج: ٩، ص: ١٤١، ط: ١. غرائب القرآن ورغائب الفرقان لنظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري، دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان – ١٤١٦ هـ – ١٩٩٦ م، ج: ٣، ص: ٣٤٦،ط: ١،. واللباب في علوم الكتاب لأبي حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني ت: الشيخين:عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض،دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان، ج: ٦، ص: ١٦١، ط: ١، ١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٨م

وعلى هذا يكون في قوله: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟﴾ ترغيب في الاقتصار على المرأة الواحدة.

فتأمل كيف اسنزلتهم الآية عبر مستويات الإستدراج من قمة غفلتهم، وحررتهم من سلطان رغبتهم من طريق الترغيب والترهيب وترقيق المشاعر حتى استعادوا توازنهم، وملكوا زمام أنفسهم فأصبحوا يكبحون أهواءها، وينفسون عن رغباتها المقبولة في الحدود المعقولة المضبوطة بميزان الفكر، وتوجيهات الشرع الحنيف.

المقام الخامس: تحقيق اختصاص الحق ـ سبحانه ـ بالربوبية ونقض ما سواها:

قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾ (١)

بعدما ذكر في الآيات السابقة من الأدلة، وسيق من الحجج، وذكر من الأفعال العظيمة الحكيمة ما يدل على تفرده –جل شأنه– بالإلاهية، كإنشاء السحاب، وتسبيح الرعد بحمده، والملائكة من خيفته، وإرساله الصواعق فتصيب من يشاء، وسجود من في السماوات والأرض له وحده ــ سبحانه ــ طوعا وكرها، وظلالهم بالغدو والآصال. شُرع في ذكر ما هو كالحجة على ذلك من كونه ــ جل وعلا ــ خالق ومدبر هذا الكون العظيم الذي يبهر العقول، تحقيقا له، وتقريرا به، وإرشادا إليه، وتهكما بهم، وتبكيتا لهم لانصرافهم عما تُلزم به تلك الحجج من الإقرار باختصاصه –سبحانه– بالربوبية، ولتمسكهم بما هم عليه من اتخاذهم ــ من دون الحق ــ سبحانه ــ أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا.

وقد سلكت الآية إلى ذلك سبيلا واصلا تمثل في استدراج المخاطبين من ضيق ما استحوذ عليهم من عقيدة فاسدة إلى واد أرحب يتيح لهم أن يُعملوا عقولهم فيما يطرح عليهم من الأدلة والحجج المثبتة لتفرده ــ سبحانه ــ بالربوبية، واستحقاقه وحده للإلاهية، ونقض ما سوى ذلك من عقائد فاسدة، وذلك من خلال النأي بنظم الآية عن الأسلوب الخبري الذي يقف عند حدود نقل الفائدة للمخاطب لارتباطه أساسا بالجانب النفعي للغة المتمثل في تقديم

(١) سورة الرعد: ١٦

المعلومة أو الفائدة للمخاطب، وجنوحها إلى أسلوب الاستفهام بما يحمله من حض على البحث والتفكير، والإرشاد والتقرير.

وقد تمثل المستوى الأول من مستويات الاستدراج بهذا المقام في السؤال التالي:

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ؟ أي: قل يا محمد لهؤلاء الذين اتخذوا من دونه ــ سبحانه ــ أولياء: من خالق السموات والأرض، ومتولي أمرهما مع ما فيهما على الإطلاق ؟

وقد أمر ﷺ أن يقول في الجواب: ﴿ ٱللَّهُ ﴾ إشعارا بأنه متعين للجوابية وأنه ﷺ والخصم في الإقرار به سواء، تنويها بوضوح الحجة عليه، وتقريعا لهم على الإشراك به ــ سبحانه ــ ما لا يملك نفعا ولا ضرا التقريع الذي لا يطيقون دفعه، ولا يسعهم إلا تجرع مرارته، وبيانا لمخالفة معتقدهم لما علموه.

ولعل مجيء الجواب على السؤال من جهة المستفهم مشير إلى عيهم، وانقطاع جوابهم، وخلو أحلامهم من حجة تكذبه ﷺ مما يكون حجة تلزمهم بالإذعان للحق، والتنازل عن الباطل، وأكثر ما يأتي بالقرآن الكريم في المعاني والقضايا التي تفتقر إلى تمكين في النفوس، كأدلة الوحدانية، والتفكر في ملكوت الحق سبحانه.

ومنه قوله تعالى: ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ ﴾[1]. وهي من المواضع التي تفتقر إلى دراسة تبين المقامات التي ورد فيها هذا النوع من الاستفهام المجاب عليه من قبل المستفهم، وتجلي آثاره النفسية على المتلقي.

---

(١) سورة الأنعام: ١٢

وقيل: هوحكاية لاعترافهم وتأكيد لم عليهم، لأنه إذا قال لهم: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ﴾؟ لم يكن لهم بدّ من أن يقولوا الله. كقوله:﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾[1].

وهذا كما يقول المناظر لصاحبه: أهذا قولك، فإذا قال: هذا قولي، قال: هذا قولك، فيحكى إقراره تقريراً له عليه واستيثاقا منه، ثم يقول له: فيلزمك على هذا القول كيت وكيت.

ويجوز أن يكون تلقيناً، أى: إن كَعُّوا[2]عن الجواب فلقنهم، فإنهم يتلقنونه ولا يقدرون أن ينكروه "[3]

المستوى الثاني: إبطال استحقاق أوليائهم للعبادة

ثم تتدرج بهم الآية نحو الإذعان للحق من خلال السؤال الثاني، حيث أمر ﷺ أن يسألهم قائلا: ﴿ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾ الفاء ــ فيه ــ عاطفة للتسبب والتفريع،رتبت الكلام الثاني على الأول أعقبت الهمزة الداخلة بين السبب والمسبب للتعكيس[4] كقوله تعالى: ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾[5] فيكون المنكر بها اتخاذهم الأولياء بعد العلم بما ينقضها، والتقدير: أعلمتم أنه ــ سبحانه ــ رب السموات والأرض فاتخذتم، فالانكار للاتخاذ لا العلم، ولا هما معا.

---

(١) سورة المؤمنون: ٨٦

(٢) يقال: كعَّ الرحل، وكعكعه الخوف، فتكعكع عن الجواب، أي: حبسه فاحتبس.

(٣) الكشاف للزمخشري، ج: ٢، ص: ٥٢٢

(٤) ينظر حاشية الطيبي على الكشاف، ج: ٨، ص: ٤٩١.

(٥) سورة الواقعة: ٨٢.

وفيه من التبكيت، والنعي على حالهم، والتنبيه على ما باتوا فيه من الضلال، وانقيادهم لسلطان الكبر وامتطائهم أفراس الباطل والغرور، حتى اتخذوا لأنفسهم من دونه ــ سبحانه ــ أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا مخالفين بذلك مقتضى علمهم باختصاصه -سبحانه- بربوبية السموات والأرض ومخلوقيتهما له ــ سبحانه ــ ومن فيهما فجعلوا سبب الإشراك ما كان يجب أن يكون سببا للتوحيد !!.

وهذه المعاني البلاغية التي تذخر بها الجمل الاستفهامية ــ هنا ــ لم تتولد من بنيتها فحسب بل كان للسياق وحال المستفهم منهم دور في إثرائها،وإلا فإن اجتزاء الجملة الاستفهامية من سياقها قد يحجب عن القارئ كثيرا من الإيحاءات الدلالية، والإشارات البلاغية التي تسهم في تشكيل المعنى المراد.

ذلك أن المعنى قد لا يشخص لك بأحواله، وتمامه إلا إذا راجعت سياقا طويلا ترى فيه خيوط المعنى تتولد قبل الاستفهام، ثم تأتي الأداة وكأنها تلخيص وتركيز للمعاني السابقة.(١)

الاستفهام هنا لا يحمل معنى بلاغيا واحدا بل تراه يطيق عددا من المعاني البلاغية التي يفيض بها بمعونة السياق مما يمنح النظم في الآية طاقة تعبيرية مذخورة تكشف عن تفاعل مكونات البيان القرآني، وتلاحمها وتآذرها في إفراز المعاني والأسرار البلاغية.

ويشبرالإمام عبدالقاهر إلى حيوية أسلوب الاستفهام وثرائه عندما يحي هكذا بعدة معان فيقول: " واعلم أن الهمزة فيما ذكرنا تقرير بفعل قد كان، وإنكار له لم كان، وتوبيخ لفاعله عليه".(٢)

وفي الجملة الاستفهامية فوق ذلك إرشاد لهم إلى وجه الضلال، وجهة الخطأ في اتخاذهم من دونه ــ سبحانه ــ أولياء بالتنبيه على عجزها المطلق

---

(١) ينظر دلالات التراكيب للدكتور محمد محمد أبوموسى، ص: ٢١٦، ٢١٧.

(٢) لائل الإعجاز للشيخ عبدالقاهر الجرجاني، تحقيق الشيخ / محمود شاكر. ص: ١١٤. مطبعة الخانجي. القاهرة.

بدليل أنها لا تملك لنفسها جلب نفع أو دفع ضر، فضلا عن القدرة على جلب النفع للغير ودفع الضرر عنه مما يقوي الإنكار الموجه إلى اتخاذهم أولياء من الله رجاء نفعهم، ويؤكد على ضلالهم، وفساد رأيهم، ويحثهم على إعادة النظر، ومراجعة النفس فيما هم عليه.

المستوى الثالث: بيان وجه عدم استحقاق أوليائهم العبادة.

بعد أن أبطلت الآيات استحقاق أوليائهم العبادة صورت عقائدهم الفاسدة، وأفعالهم الضالة في صورة محسوسة بغية الوقوف على علة عدم استحقاق أوليائهم العبادة والطاعة، وذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ﴾ أي: هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمى الذي هو المشرك الجاهل بالعبادة ومستحقها وَالْبَصِيرُ الذي هو الموحد العالم بذلك، وكأن الرسول ﷺ لما أفرد الله بالربوبية،وأثبتها المخاطبون للأصنام كان حالهم وحاله كحال الأعمى والبصير وحال الظلمات والنور.

إعادة الأمر بالقول للاهتمام الخاص بهذا الكلام لأن ما قبله إبطال لاستحقاق آلهتهم العبادة. وهذا إظهار لمزية المؤمنين بالله على أهل الشرك، ذلك أن قوله: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ﴾ تضمن أن الرسول – عليه الصلاة والسلام – دعا إلى إفراد الله بالربوبية، وأن المخاطبين أثبتوها للأصنام فكان حالهم وحاله كحال الأعمى والبصير وحال الظلمات والنور، ونفي التسوية بين الحالين يتضمن تشبيها بالحالين وهذا من صيغ التشبيه البليغ(١).

(١) ينظر التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، ج: ١٣، ص: ١١٤.

وعلى قدر ما في جملة الاستفهامية ــ هنا ــ من تأنيب وتبكيت، نجدها تقدم لهم مزيدا من الإرشاد والمعونة على رؤية الحق، والخروج من الضلال على النحو التالي:

أولا: صور الأعمى، والبصير، والظلمات والنور تجسد لهم ما هو معنوي من فهم للحجج والبراهين المثبتة لاختصاص الخالق بالربوبية، والاهتداء لذلك، أو عدم فهمها، وبالتالي ترك العمل بما توجبه وتستلزمه من صحة العقيدة، فالعلم المستفادَ من طرق الحواسِّ أو المركوز فيها من جهة الطبع وعلى حدِّ الضرورة، يفضلُ المستفاد من جهة النَّظر والفكر في القوة والاستحكام.

ثانيا: الجمع بين هذه الأضداد: الأعمى والبصير، الظلمات والنور يثير لدى المخاطب غريزة المقارنة بين الأشياء، فيعينه على رؤية حسن الإقرار للخالق بالربوبية، وقبح الإشراك به القبيح.

ثالثا: الجملة الاستفهامية فيها إثارة لغيرة المخاطبين، من جهة أنها تضع المقرين للحق بالربوبية في صورة البصير، وتضع إقرارهم للخالق بالربوبية، وإدراكهم الحجج الدالة على ذلك في صورة النور، ولا شك أن ذلك مما يثير رغبتهم كي يكونوا في النور مع من يبصر.

و﴿أَمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمْ هَلْ﴾ منقطعة، تتقدر بـ "بل والهمزة "على المختار، والتقدير: بل أهل تستوي؟ وهل وإن نابت عن همزة الاستفهام في كثير من المواضع فقد جامعتها[1] في قول زهير بن أبي سُلمى:

سَائِلْ فَوَارِسَ يَرْبُوعٍ بِشَدَّتِنَا أَهَلْ رَأَوْنَا بِسَفْحِ القُفِّ ذِي الأُكَمِ

(١) تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي، ج: ٥، ص: ٣٠٩.

أي: أهل رأونا، من الجمع بين أداتين لمعنى واحد، على سبيل التوكيد، وإذا جامعتها مع التصريح بها فلأنّ تجامعها مع أم المتضمنة لها أولى.

والمعنى: أبلغ ذبيان وحلفاءها وقل لهم: قد حلفتم على إبرام حبل الصلح كل حلف؛ فتحرجوا الحنث وتجنبوا الغدر ونقض العهد.

المستوى الرابع: التأكيد على العجز المطلق لأوليائهم.

وفي هذا المستوى تؤكد الآية على ما اقتضاه الكلام السابق من تخطئة المشركين فيما ذهبوا إليه فيقول سبحانه:﴿ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾أي: بل أجعلوا لِلَّهِ ــ جلا وعلا ــ شُرَكاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ سبحانه وتعالى، والهمزة لانكار الوقوع وليس المنكر هو الجعل لأنه واقع منهم، وإنما هو الخلق كخلقه تعالى.

والمعنى: أنهم لم يجعلوا لله ــ تعالى ــ شركاء خلقوا كخلقه فَتَشابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ بسبب ذلك، وقالوا: هؤلاء خلقوا كخلق الله تعالى واستحقوا بذلك العبادة كما استحقها سبحانه ليكون ذلك منشأ لخطئهم، بل إنما جعلوا له شركاء عاجزين لا يقدرون على ما يقدر عليه الخلق فضلا عما يقدر عليه الخالق.(١)

ويقول ابن المنير الاسكندري إن في سياق الإنكار تهكم بهم، لإن غير الله لا يخلق خلقا البتة، لا بطريق المشابهة والمساواة لله تقدس عن التشبيه، ولا بطريق الانحطاط والقصور، فقد كان يكفي في الإنكار عليهم أن الشركاء التي

(١) ينظر روح المعاني للألوسي، ج: ٧، ص: ١٢١.

اتخذوها لا تخلق مطلقا، ولكن جاء في قوله تعالى: ﴿خَلَقُواْ كَخَلْقِهِۦ﴾ تهكم يزيد الإنكار تأكيدا[1].

وتعقبه الطيبي بأن إثبات التهكم تكلف؛لإنه ذكر الشيء وإرادة نقيضه استحقارا للمخاطب كما في قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[2]، وها هنا ﴿كَخَلْقِهِۦ﴾جيء به مبالغة في إثبات العجز لآلهتهم على سبيل الاستدراج وإرخاء العنان، فإنه تعالى لما أنكر عليهم أولا اتخاذهم من دونه شركاء عاجزين لا يقدرون على ما لا يقدر عليه الخلق، فضلا عن أن تقدر على ما يقدر عليه الخالق ووصفها بأنها لا تملك لأنفسها نفعا ولا ضرا فكيف تملك ذلك لغيرها[3].

والمعنى: هب أن أولئك الشركاء قادرون على نفع أنفسهم وعلى نفع عبدتهم فهل يقدرون على أن يخلقوا شيئا، وهب أنهم قادرون على خلق بعض الأشياء فهل يقدرون على ما يقدر عليه الخالق من خلق السموات والأرض ؟

والحق أن الآية ناعية عليهم متهكمة بهم فإن من لا يملك لنفسه شيئا من النفع والضر أبعد من أن يفيدهم ذلك، وكيف يتوهم فيه أنه خالق وأن يشتبه على ذي عقل فينبه على نفيه[4]

---

(١) الكشاف بحاشية الانتصاف لابن المنير الاسكندري، ج: ٣، ص: ٣٤٤. تحقيق الشيخين: عادل أحمد عبدالموجود، على محمد نعوض، مكتبة العبيكان. السعودية.

(٢) آل عمران: ٢١، التوبة: ٣٤، الانشقاق: ٢٤

(٣) ينظر حاشية الطيبي على الكشاف المسماة: فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب،ج: ٨، ص:٤٩٢.ت: حمزة محمد وسيم البكري. جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، وحدة البحوث والدراسات.

(٤) ينظر روح المعاني للألوسي، ج: ٧، ص: ١٢٢، وما بعدها.

ثم يؤمر الرسول ﷺ أن يقول لهم تحقيقا للحق، وإرشاد لهم: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ من الجواهر والأعراض، ولا خالق سواه وإلا لزم التوارد، فتكون الآية قد دلت من أوضح طريق وأقومه على المراد، وهو نفي استحقاق غيره تعالى للعبادة والألوهية،لأنه لا خالق سواه فيشاركه في ذلك الاستحقاق.

المقام السادس: الاستدلال بأفول الكواكب على حدوثها، واختصاص فاطرها بالربوبية

قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٧٤ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ٧٦ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ٧٧ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾(١)

من شرط الدعوة إلى سبيل الله أن تكون بالحكمة والموعظة الحسنة، وأن تكون مجادلة المجادلين في الحق بالتي هي أحسن. تلك كانت سنة الأنبياء، وكان ذلك منهجهم منذ إبراهيم عليه السلام، وانتهاء بمحمد ﷺ على ما لاقوا من أقوامهم مما تنوء به الجبال، وتضيق به الصدور.

والحكمة: كل علم، أو كلام يراعى فيه إصلاح أحوال الناس ومعتقدهم إصلاحا مستمرا لا يتغير، كالحجج القطعية، والبراهين العقلية المزيحة للشبه، وتطلق على العلوم الحاصلة للأنبياء.

(١) سورة الأنعام: ٧٤: ٧٩.

وأما الموعظة فهي: القول الذي تلين به نفس المخاطب لعمل الخير، وهي أخصّ من الحكمة.، وحسنها في جنسها: لينها، وقبول الناس لها.

والمجادلة هي: الاحتجاج لصواب رأي أوبطلان ما يخالفه، على ألا تخلو من الرفق واللين، واختيار الوجه الأيسر، واستعمال المقدمات الملائمة لحال المخاطبين تسكينا لعنادهم، وتيسيرا لاستدراجهم للنتائج المستهدفة، كما فعل الخليل عليه السلام فإن ذلك من الفراسة في فهم مداخل النفوس وفقه التأثير عليها، واستقصاء أساليب الموعظة معها، لعلّ بعضها أن يكون أنجع من بعض في استمالتها.

لذا جاءت دعوة إبراهيم عليه السلام قومه، واستدراجهم إلى توحيد الحق سبحانه، ونبذ عبادة الأصنام والكواكب مثالا يحتذى ونبراسا يضيء هذا الطريق لسالكيه.

وقد تمثل استدراج إبراهيم عليه السلام قومه في عدة مستويات، وصولا إلى النتيجة على النحو التالي:

المستوى الأول: إظهار الرفض والإنكار لمعتقدهم، والمصارحة بضلالهم.

قال تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام مخاطبا أباه آزر ﴿ **وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ** ﴾ وقد بنيت الآية ــ هنا ــ على الاستفهام المفيد للإنكار والتوبيخ ــ كما ذكر المفسرون ــ غير أنه ــ إلى جانب ذلك ــ لم يخل من دلالات كثيرة يوحي بها السياق، والمقام. منها:

ــ ما يضفيه الاستفهام على الأسلوب من طاقات تأثيرية إيجابية تنعكس على مدركات المخاطب فتثيره من طريق خفي لبناء تصور جديد مبني على إدراك واع لحقائق الأشياء، وتدفعه إلى المشاركة في البحث عن سبب إنكار المتكلم ورفضه، بما يستلزم مراجعة المخاطب لنفسه، ومعتقده.

ــ المفردات المستخدمة في بناء الجملة الاستفهامية فيها تنبيه للمخاطب، وإشارة إلى تذبذب عقيدته، وأنها ليست على تلك الدرجة من الرسوخ والثبات بحيث تستوجب الدفاع عنها، أو الحيلولة دون مراجعتها، وإعادة النظر في مدى صحتها؛ ذلك أن الفعل: " تتّخذ " مادته الاتّخاذ، وهي صيغة تدل على التكلّف فيما وجه الإنكار إليه، وسلط الرفض عليه، والإشعار بأنه مفتعل مصطنع لا جذور له تمده بالنضارة والحيوية، ولا أساس له يمسكه أن يزول. لوقوعه على ما ليس أهلا للربوبية.

كما أن التنكير في: ﴿أَصْنَامًا﴾ يوحي بتحقيرها، وانحطاطها، وجمعها يوحي بإنكاره لأن تكون الآلهة متعددة، وأنفته أن يكون هو عابدا لأكثر من إله، فأومأ من طرف خفي إلى قضية التوحيد.

ثم يبين ما أنكره عليهم من اتخاذهم الأصنام آلهة، ويصرح بما يراه من ضلالهم البين، مؤكدا مضمون الإخبار بإن، في قوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾.

ورؤيته عليه السلام أباه آزر في ضلال مبين، وإن استلزمت أن يكون قومه في ذلك الضلال أيضا؛ كونهم على دين أبيه آزر، إلا أن المقام لما كان مقام مصارحة بضلالهم لم يقتصر فيه على دلالة الالتزام، بل عطف القوم على ضمير المخاطب، وفيه تنبيه على أن اتفاق جمع غفير من الخلق على الباطل لا يجعل منه حقا، لأن الحق لا يكون حقا باتباع الناس له، بل بما قام عليه من الدلائل، والحجج، والبراهين.

وبهذه المقدمة يكون إبراهيم عليه السلام قد أصبح مطالبا بأن يبرهن على رؤيته، ويورد عليها من الحجج ما يثبت كونهم في ضلال مبين، وإلا فعليه أن يعترف بأنهم على حق، وأن رؤيته قد جانبها الصواب.

المستوى الثاني: التنبيه على أن الرب لا يكون إلا واحدا

ويتجلى هذا من خلال قصر مجاراته لهم في الاعتراف بربوبية الكواكب على كوكب واحد فقط في قوله تعالى حكاية على لسانه عليه السلام: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ وهذا منه عليه السلام على سبيل الفرض والاستدراج وإرخاء العنان، وإبطال مقالتهم بربوبية الكواكب، إلا أنه عليه السلام لما كان قد عرف من حالهم شدة عنادهم وعدم قبولهم دعوته إياهم إلى التوحيد لو صرح بها لما طبعوا عليه من تقليد لأسلافهم، وانقياد لغرورهم مال إلى طريق يستدرجهم من خلالها إلى الاستماع لحجته، فذكر كلاما يوهم أنه داخل في دينهم، وذاهب مذهبهم في عبادة كوكب واحد، ومقصوده من ذلك أن يتمكن من ذكر الدليل، وإقامة الحجة على بطلان ربوبيتها، فإن المستدل على فساد قول يحكيه أولا، ثم يكر عليه بالإبطال.

والمعنى: لما حل الظلام نَظَر الكواكب فرأى كوكباً واضحاً مشرقاً أنور ما يكون في وسط السماء من غير قصد للتأمّل قال مشيرا إليه ليميزه عن غيره من الكواكب أشد تمييز: ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ وليفيد قصرِ الربوبية على المشار إليه، وإلا لقال: هذا ربّ. فيفهم أنه رب من الأرباب، فتراه عليه السلام قد نبه من طريق لطيفة على أن المعبود لا يكون إلا واحد من خلال اعترافه بربوبية كوكب واحد منها هو المشار إليه، إظهارا لموافقته لهم كي يهشوا له، ولا ينفروا من الإصغاء إليه إذا كر عليهم لإبطال معتقدهم.

المستوى الثالث: بيان بعض ما يجب للرب المعبود من صفات

بعد استمالتهم إليه عليه السلام بإظهار الدخول في مذهبهم، والاعتراف أمامهم بربوبية كوكب واحد، عاد وكر على ذلك بالبطلان؛ ليثبت لهم عدم استحقاق الأجرام السماوية كافة، والكواكب منها خاصة الربوبية، كونها لا تتصف

بشيء مما ينبغي أن يكون عليه الرب وهو دوام الوجود، وأما هذه فإنه يطرأ عليها الأفول، لذا قال عليه السلام: لما أفل﴿ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴾.

ووجه الاستدلال بالأفوال على عدم استحقاق الإلهية أنّ الأفول احتجـاب عن العباد، وابتعاد عنهم[1]، وشأن الإله أن يكون دائم الوجود لتدبير أمورهم، وإلا فإنه لا يغني عنهم شيئا حين مغيبه ويبدوا أنهم كانوا يعتقدون أن أفـول النجم مغيب عن العالم.

وأما التعبير بالفعل ﴿ لَآ أُحِبُّ ﴾ منفيا، فمعناه: لا أرضى بالآفل ربـا، أو هو على تقدير مضاف محذوف ــ كما ذكر الزمخشـري[2] ــ أي لا أحـبّ عبادة الأرباب الآفلين، وهو فوق ذلك يفيض بمعان لطيفة، كونه جاء في سياق استدراج القوم لإبطال معتقدهم، وما درجوا عليه، وورثوه من آبائهم، وهـو مقام أحوج ما يكون إلى التلطف معهم كيلا يثير شغبهم، ويحرك عنادهم، لـذا كان التعبير بـ ﴿ لَآ أُحِبُّ ﴾ أكثر تلطفا من التعبير بـ: أكره مثلا.

ولما كان الأفول صفة من صفات الكوكب الذي المشـار إليـه، حـذف الموصوف، وجاء بالصفة: ﴿ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴾ بصيغة الجمع، ليوقع الفعل المنفـي على كل شيء كان الأفول من صفاته، ومنها هذا الكوكب الذي أشار إليه، ففيه مزيد من التلطف في إبطال استحقاق تلك الأجرام للربوبية. و التنبيه على أن النفوس السوية إذا أحبت، فينبغي أن يكون حبها لما لا يتصـف بصـفة مـن صفات النقص، وإذا عبدت فينبغي أن يكون يكون معبودها متصفا بكل صفات الكمال، إلا فإن فيها عيبا وخللا.

---

(١) ينظر حاشية شيخ واده على البيضاوي، ج: ٢، ص:٢٨١ وما بعدها.

(٢) ينظر تفسير الكشاف للزمخشري، ج: ٢، ص: ٣٨

ثم تراه ﷺ يؤكد بانصرافه عن ذلك الكوكب، وعدم الرضا بربوبيته،على استلزامها الكمال والوحدانية بالبحث عن إله آخر منزه عما اتصف بـــه الأول من نقص وحدوث دل الأفول عليه، فقال -على الطراز الأول- بعـــد رؤيتـــه القمر بازغا: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ ليفيد بتعريف الطرفين أنَّه أوغل في الكمـــال مـــن الكوكب المصروف عنه لكثرة ضوءه وسعة انتشاره مع شدة بياضـــه، فتـــراه يرشد بلطف لمفهوم الكمال عن طريق الربط بين فـــرض اســـتحقاق القمـــر للربوبية، وأنه أولى بها وأجدر من الكوكب، وبين التدرج في الصـــفات مـــن الأدنى إلى الأعلى.

ذلك أن التعبير بالقمر يوحي بقربه من التمام ــ إن لم يكن قد قـــال هـــذا وقت تمامه بالفعل ــ مما يعني أن نوره يكون أشد، وانتشاره أوسع؛ فـــالقَمَر يكون هلالا أول الشهر وآخره[1]، ووصفه بـــ ﴿بَازِغًا﴾ تأكيـــد علـــى ذلـــك لاشتقاقه من البزغ بمعنى: الشق، كأنه يشق الظلمة بنوره شقا[2].

المستوى الرابع: التعريض بضلالهم

ذلك أن عدم رضاه عن ربوبية الكوكب، ثم القمر تنبيه على اشتراكهما في الحدوث، مما يحول دون استحقاقهما الربوبية، لذا قال ﷺ معرضا بضـــلال قومه بعد أفول القمـــر: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾، وفيـــه تلطف لا يكون في التصريح بضلالهم لو قال مثلا: لئن لم يهدنا ربي لنكـــونن من القوم الضالين.

---

(١) ينظر لسان العرب لابن منظور، مادة: قمر.

(٢) ينظر لسان العرب لابن منظور، مادة: بزغ.

ومما زاد من تأثيره استمالة، وإقناعا أن التعريض – هنا– يمثل مستوى وسطا بين أدنى درجات التعريض في قوله: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾، وقمة التصريح المتمثلة في تبرئه عليه السلام مما يشركون.

يقول الألوسي " والتعريض بضلالهم هنا أصرح وأقوى من قوله أولا: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾، وإنما ترقى عليه السلام إلى ذلك؛ لأن الخصوم قد قامت عليهم بالاستدلال الأول حجة فأنِسُوا بالقدح في معتقدهم، ولو قيل هذا في الأول، فلعلهم كانوا ينفرون ولا يصغون إلى الاستدلال، فما عرَّض لهم عليه السلام بأنهم على ضلالة إلا بعد أن وثِق بإصغائهم إلى تمام المقصود واستماعهم له إلى آخره"(١).

وفيه إلى جانب ذلك:

– إشعار لهم بأن له ربا يتصف بالكمال، وتمهيد للإعلان عن قصْر عبادته عليه باعتباره واحدا لا شريك له.

– إدخال الشكوك في نفوسهم نحو معتقدهم القاضي بربوبية الكواكب مع ما تتصف من نقص يتمثل في أفولها، والاستدلال على ذلك بالمشاهدة، كونه تريث حتى أفول القمر ــ مع علمهم الجازم بأنه يؤول إلى ذلك، لأنها أشد أثرا.

– أن مما يتصف به الرب –غير الكمال– توليه أمور من يلجأ إليه، ويستعين به من عباده، ومنها هدايتهم إلى الصواب وإلى طريق مستقيم.

(١) ينظر روح المعاني للألوسي، المجلد الرابع، ص: ١٨٦.

المستوى الخامس: إعلان تبرئه مما يشركون

ويمثل هذا المستوى قوله لما رأى الشمس في الصباح بازغة: ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ ومع إعلان تبرُّئه عليه السلام مما يشركون تراه لا يزال محافظا على مسلكه في استمالتهم بإظهار صون الرب المفترض؛ استدراجا لهم إذ لو حقر بوجه ما كالتأنيث مثلا، فقال مشيرا إلى الشمس: هذه ربي لكان سببا لهم، وداعيا للانصراف عن سماع حجته.

واعتبار الشمس ربا فيه تنبيه لهم على: إبطال ربوبية الكوكب والقمر بالدليل المصحوب بالبرهان، وإرشاد لهم إلى صفة أخرى من الصفات التي سبق ونبه على وجوب اتصاف الرب بها، ذلك أن قوله في وصف الشمس: ﴿ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ ﴾، جعلها متفردة في بعض صفاتها؛ مما جعلها أولى باستحقاق الربوبية في نظره، فهو جار مجرى التعليل لقوله تعالى: ﴿ هَٰذَا رَبِّي ﴾ المستلزم نقض ربوبية الكوكب والقمر.

فلما أفلت كما أفل ما قبلها قال صادعا بالحق، متبرئا: ﴿ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ وأنت تراه قد رتب هذا الحكم ونظيريْه مع الكوكب والقمر على حالة الأفول دون البزوغ؛ كونه من ضروريات سوق الاحتجاج، والترقي في مستويات الاستدراج على هذا المساق الحكيم، وإلا فإن كلّا من الأفول والبزوغ وإن كان في نفسه انتقالا منافيا لاستحقاق تلك الأجرام للربوبية قطعا؛ لكن لما كان البزوغ حالة موجبة لظهور الآثار، ملائمة لتوهم الاستحقاق في الجملة، رتب عليه افتراض استحقاقها الربوبية بالطريقة المذكورة.

وحيث كان الأفول حالة مقتضية لانطماس الآثار المنافي للاستحقاق المذكور منافاة بينة يكاد يعترف بها كل مكابر، رتب عليها ما رتب من عدم حبه للآفلين، والتعريض بضلالهم، وتبرئه مما يشركون.

المستوى السادس: إعلان إسلامه لله رب العالمين.

وذلك حيث قال ــ بعد ما ساق ما ساق من حجج، وما نهض به من استدلال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: قصدته -سبحانه- بالعبادة، وأفردته بالطاعة.

قال هذا عليه السلام وهو لا يزال محافظا على استمالتهم، محاولا إقناعهم بتوجيه العبادة إلى مستحقها، فكان في التعبير بالموصول في قوله: ﴿لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ إيماء إلى علة عدم استحقاق ما يعبدونه من الأجرام الكونية للربوبية؛ كونها موجودة، أوجدها فاطر السموات والأرض، فضلا عما أفاده من بيان سببا استحقاق الله – سبحانه- للألوهية؛ كونه فاطر السماوات والأرض.

و﴿حَنِيفًا﴾ حال من الضمير في الفعل: ﴿وَجَّهْتُ﴾: وهو فعيل بمعنى فاعل مشتق من الحنَف، وأصله:ميل في القَدَمَين، تُقبِلُ كل واحدة منهما على الأُخرى بإبْهامها، والحَنِيفُ: المُسْلِمُ الذي يَتَحَنَّفُ عن الأَدْيانِ أَي يَمِيلُ إلى الحقّ، والمراد ــ هنا ــ الميل عن الطريق المعتادة في الدين، كما أن الذي به حنَف يميل في مشيه عن الطريق المعتاد. وإنما كان هذا مدحاً له عليه السلام لأن قومه يومئذ كانوا في ضلالة عمياء، فجاء توجيهُ وجهه عليه السلام مائلاً عما كانوا عليه من ضلال شاع حتى صار في نظرهم كأنه الهدى، فلما مال عليه السلام عن ذلك الضلال،كان ذلك حاله، ثم صار الحنيف لقب مدح بالغلبة.

ثم أكد ذلك بقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وإنما عطفه على ما قبله ليظهر أن قصده منها: التبرّؤ من أن يكون من المشركين.

والاستدراج هنا قد اعتمد في مجمله على عنصر الاستدلال بالمشاهدة نقضا لربوبية ما يتصف بالنقص،ووصولا لما يجب أن يتصف به الرب من صفات الكمال والوحدانية والقدرة التي لا تتخلف على تولي أمور الكون بكل ما فيه.

وقد ساد الهدوء كل مستوياته باستثناء المستوى الأول الذي عمد فيه إلى إثارة انتباه القوم بقوله لأبيه آزر: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ والمستوى الأخير الذي بدا فيه عنصر المواجهة والمصارحة واضحا، وما عدا ذلك من مستويات الاستداج في هذا المقام تراه قد اتسم بالهدوء والتريث، كون كل مستوى قد شغل حيزا زمنيا امتد ما بين حالتي البزوغ والأفول.

المقام السابع: الاحتجاج لاختصاص الله -سبحانه- بالرازقية

قال تعالى: ﴿ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۙ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1]

الرازقية من الصفات التي يتصور فيها الشركة مع الحق جل جلاله لذا درج القرآن الكريم على تأكيد اختصاصه ــ جل جلاله ــ بتلك الصفة، فتراه يأتي بضمير الفصل في قوله: ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾[2] لشيوع إسناد الإطعام والسقي إلى غيره جل جلاله.وهما من متعلقات تلك الصفة.

---

(١) سورة سبأ: ٢٤.

(٢)سورة الشعراء: ٧٩

وفي قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ ﴾[1] جاء بضمير الفصل لِقصر الإِغناء والإِقناء ــ وهما من متعلقات الرازقية أيضا ــ عليه ــ جل جلاله ــ دون غيره، لأن من الناس من يفتنون بالأسباب والوسائل فيسندون إليها تلك الصفة، ويذهلون عن شكر من أوجد تلك الوسائل، وهذه الأسباب، وهو الحق سبحانه.

وقديما كان المشركون يعتقدون أن الأصنام تقدر لهم تيسير ما يأكلون وما يشربون، وكانوا يعبدونها من رجاء ذلك، فتأتي الآيات ــ هنا ــ لتبين اختصاص الحق ــ جل جلاله ــ بتلك الصفة بما يستلزم انفراده بالإلاهية، واستحقاقه عبادة الخلق، لأنها شكلا، ولا يستحقه إلا الرازق المنعم.

وقد تدرجت الآيات إلى هذا الغرض عبر عدة مستويات روعي فيها استنزال المخاطبين واستمالتهم بضرب من الموادعة والملاينة حرصا على عدم إثارة شغبهم مما يكون سببا في إلهائهم عن رؤية الحق والإقرار به، وذلك على النحو التالي:

المستوى الأول: تمثل في طرح القضية وصياغتها في أسلوب استفهامي إثارة لفكرهم، وإعمالا لعقولهم، وتنبيها لهم على خطأهم، ودفعا لهم للمشاركة في البحث عن جواب، وذلك قوله تعالى: ﴿ قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُ ﴾، وقد أُمِر ﷺ بأن يقررهم بقوله: ﴿ مَن يَرۡزُقُكُم ﴾؟ ثم أمره بأن يتولى الإجابة والإقرار عنهم بقوله: ﴿ ٱللَّهُ ﴾.

وفي الجواب عنهم إشعار بأنهم مقرّون لله بذلك، وأنهم لا ينكرونه وإن لم تنطق به ألسنتهم عنادا وضرارا؛لانقيادهم لما أفعمت به صدورهم من المكابرة

(١) سورة النجم: ٤٨.

والعناد وحب الشرك، أو حذارا من إلزام الحجة؛ لأنهم إن أقروا لله بذلك لزمهم قصده ــ سبحانه ــ بالعبادة، والانصراف عن عبادة آلهتم المزعومة؛ كونها لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا، وإلا لزمهم التناقض حيث آثروا عبادة من لا يقدر على أن يرزقهم شيئا، وتركوا عبادة الله وقد أقروا له بالرازقية، فيكونوا بعبادتهم تلك قد شكروا من لا يستحق الشكر.

المستوى الثاني: حلحلة المخاطبين عن معتقدهم بعدم الجزم بصحة الجواب، والتشكيك في حالتي الفريقين بترديدهما بين الهدى والضلال.

وهو من أساليب الإقناع اللطيف التي تجذب المستهدف بالاستدراج إلى شرك الإذعان والقبول، كونه يخلو من مثيرات التغيظ والعناد، مما يفسح المجال لرؤية الصواب، ويمهد الطريق لاتباع الحق، وذلك قوله: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وقد حقق هذا الأسلوب بنظمه ما يلي:

أولا: التعريض بأنهم في ضلال لا سيما بعد قرينة الاستفهام، لأنه لما ذكر حال الهدى أولا، وحال الضلال ثانيا أومأ إلى أن الأولين المعبر عنهم بضمير التكلم من على الهدى، والمعبر عنهم بضير المخاطبين من في الضلال[1]، وهو أبلغ في التَّصريحِ بضلالهم من النص عليه لجريانه على سَنَنِ الإنصاف وإرخاء العنان المسكتين للخَصمِ.

يقول الزمخشري: وفي دَرْجِهِ بعد تقْدِمةِ ما قُدِّم من التقرير البليغ: دلالةٌ غير خفية على من هو من الفريقين على الهدى ومن هو في الضلال المبين،

(١) وهو ما يسمى في علم البديع باللف والنشر المرتب، ويتحقق بذكر متعدد مفصل أو مجمل، ثم ذكر ما لكل من آحاده بلا تعيين، اتكالا على أن السامع يرد إلى كل ما يليق به لوضوح الحال.

ولكن التعريض والتورية أنضلُ[١] بالمجادل إلى الغرض، وأهجمُ بـه علـى الغلبةِ، مع قلة شغبِ الخصم وفلّ شوكته بالهُوَيْنا [٢]، ويجعل منه بيت حسان في رده على معاية بن أبي سفيان، وكان قد هجا الرسول ﷺ قبل إسلامه[٣]:

أتهجـوهُ ولسـتَ لـه بكـفءٍ فشـركما لخيْرِكمـا الفِـداء[٤]

ثانيا: الترغيب في تحري الهدى واتباعه لنيل منزلة الاستعلاء عليه، لما فيه من الظهور والتميز، وما يجلبه ذلك من انشراح الصدر، والترهيب مـن مهاوي الضلال بما فيه من تخبط وذلة، وضياع ومهانة، وضيق وكآبة، حيث خولف في نظم الآية بين حرفى الجرّ الداخلين على الحق والضلال، فجـيء بحرف الاستعلاء في جانب أصحاب الهدى، وجيء بحرف الظرفية في جانب المنغمسين في الضلال.

وقد ضاعف ذلك من تأثير حالتي الترغيب والترهيب لما فيه من تمثيـل حال المهتدي بحال مستعل على فرسٍ جواد يركضه حيث شاء حتى يبلغ بـه مقصده، وتمثيل لحال الضال بحال المنغمس في ظلام يتخبط فيه لا يدرى أين يتوجه، وقد أحاط به إحاطة الظرف بالمظروف.

ثالثا: الاحتجاج نظريا لانفراده –سبحانه– بالإلاهية؛ كونها حقيقة لا تقبل التجزئة والتبعيض لذا كان الاعتراف له ــ جل جلاله ــ بالرازقية مسـتلزما للانفراد بإلإلاهيته لأنه لا يجوز عقلا أن ينفرد ببعض صفات الإلهيـة وهـي الرازقية، ويشارَك في البعض الآخر.

---

(١) الأنضل الأشد رميا يقال: ناضله: راماه، وناضلت فلانا فنضلته إذا غلبته.

(٢) الهوينا: تصغير: الهونا، تأنيث الأهون، والهون: الرفق واللين.

(٣) نهاية الأرب في فنون الأدب لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النـويري، ت: مفيـد قمحية وجماعة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان – ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٤ م، ط: الأولى، ج: ٣، ص: ٢٤٩.

(٤) ينظر تفسير الكشاف للزمخشري، ج: ٣، ص: ٥٦٤.

الخاتمة

الاستدراج: ما يكون موضوعا لتقريب المخاطب، والتلطف به، والاحتيال عليه بإيراد ألطف القول وأحسنه إسراعا به إلى قبول المقصود.

تفاوت مستويات الاستدراج تبعا لتفوت حال المخاطب وملابسات المقام.

الاستدراج يعد منطلقا ناجعا لمنهج يقوم على تربية النفوس وتهذيبها في رفق ولين

الاستدراج والتلطف من أنجع الطرق في استنزال طائر الخصم، والحد من رعونته وغلظته

يشيع في مستويات الاستدراج في مقام السياسة والحكم قدر كبير من الحكمة، والحنكة، وحسن السياسة، وروعة الكياسة، ومهارة القيادة، والتذكير بالعواقب، وتوجيه النظر إلى الاعتبار بأحداث التاريخ، فضلا عن نفاذ الرؤية، وصفاء البصيرة.

في مغالبة الشهوات والحد من نزواتها يشيع طريق الترغيب والترهيب حتى استعادة التوازن، وإتاحة التنفيس للمقبول منها في الحدود المعقولة المضبوطة بميزان الفكر، وتوجيهات الشرع الحنيف.

في معالجة القضايا والمشكلات الاجتماعية يتسم الاستدراج بالتركيز على إثارة العواطف والمشاعر، والتذكير بما كان من الحب والفضل.

لم تتعدد مستويات الاستدراج في مقام تعيين الدين الحق مع اليهود والنصارى لما كان عليه القوم من علم بالأديان،والأنبياء، والكتب السماوية المنزلة عليهم، وما بشرت به من بعثة الرسول ﷺ بل غلب عليه سمت العرض، وشاع فيه إطلاق الحرية، وإرخاء العنان للمستدرَج؛ لأن لديه من العلم ما يلجئه إلى الدخول في الدين الحق

الاستدراج في مقام ثبوت اختصاص الحق ــ سبحانه ــ بالبوبوبية اعتمد في مجمله على عنصر الاستدلال بالمشاهدة، وساد الهدوء والتريث جل مستوياته.

يعد استخدام الاستدراج من الفراسة في فهم مداخل النفوس وفقه التأثير عليها، واستقصاء أساليب الموعظة معها، لعلّ بعضها أن يكون أنجع من بعض في استمالتها.

وآخر دعواي أن الحمد لله رب العالمين

قائمة بأهم المصادر والمراجع

١- أسباب النزول للواحدي، توزيع دار الباز للنشر والتوزيع، مكه المكرمة، ناشر مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع ١٣٨٨ه - ١٩٦٨ م
٢- أنوار التنزيل وأسرار التأويل " لـ: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي المتوفى: ٦٨٥هـ، ت: محمد عبد الرحمن المرعشلي ط: ١، سنة: ١٤١٨ هـ، دار إحياء التراث العربي - بيروت
٣- التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور.
٤- تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي.
٥- التفسير الوسيط للقرآن الكريم لمجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، الطبعة: الأولى: ١٣٩٣ هـ ـ ١٩٧٣ م - ١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٣ م
٦- تاج العروس من جواهر القاموس لمحمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، الملقّب بمرتضى الزَّبيدي
٧- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي البخاري، ت: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط: الأولى ١٤٢٢هـ
٨- حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي.
٩- حاشية شيخ زاده على تفسير البيضاوي

١٠- حاشية الطيبي على الكشاف المسماة: فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب،ج: ٨، ص:٤٩٢.ت: حمزة محمد وسيم البكري. جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، وحدة البحوث والدراسات.

١١- دلائل الإعجاز للشيخ عبدالقاهر الجرجاني، تحقيق الشيخ / محمود شاكر. ص: ١١٤. مطبعة الخانجي. القاهرة.

١٢- دلالات التراكيب للدكتور محمد محمد أبوموسى، مكتبة وهبة.

١٣- روح المعاني لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي، تحقيق: على عبدالباري عطية، دار الكتب العلمية، بيوت، لبنان، الطبعة الأولى

١٤- الاشتقاق لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد، مكتبة الخانجي - القاهرة / مصر - ط: ٣، ت: عبد السلام محمد هارون ــ صحيح البخاري

١٥- الطراز للعلوى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. راجعه: محمد عبدالسلام شاهين.

١٦- غرائب القرآن ورغائب الفرقان لنظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م،ط: ١

١٧- فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب للطيبي

١٨- الكشاف بحاشية الانتصاف لابن المنير الاسكندري، ج: ٣. تحقيق الشيخين: عادل أحمد عبدالموجود، على محمد نعوض، مكتبة العبيكان. السعودية.

١٩- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، لأبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله، دار الكتاب العربي، بيروت،ط: ٣، ١٤٠٧ هـ

٢٠- اللباب في علوم الكتاب لأبي حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني ت: الشيخين:عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض،دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان، ط: ١، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م

٢١- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لأبي الفتح ضياء الدين نصرالله بن محمد بن محمد بن عبدالكريم الموصلي،المعروف بابن الأثير، ت: محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية - بيروت، ١٩٩٥

٢٢- مختار الصحاح لمحمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي

٢٣- المخصص - لابن سيده، أبي الحسن علي بن إسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي، دار إحياء التراث العربي - بيروت - ١٤١٧هـ ١٩٩٦م، ط: ١، ت: خليل إبراهم جفال

٢٤- مرقاة المفاتيح لعلي بن سلطان محمد القاري شرح مشكاة المصابيح للتبريزي ت: الشيخ جمال عيتاني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان

٢٥- مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد لمحمد بن عمر نووي الجاوي البنتني إقليما، التناري بلدا (المتوفى: ١٣١٦هـ)، ت: محمد أمين الصناوي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط: الأولى - ١٤١٧ هـ

٢٦- المصنف في الأحاديث والآثار لأبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي،١٨٧ مكتبة الرشد - الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٩، ت:كمال يوسف الحوت.

٢٧- مفاتيح الغيب لفخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي، دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠ م ط: ١.

٢٨- نهاية الأرب في فنون الأدب لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، ت: مفيد قمحية وجماعة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان - ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م، ط: الأولى.